

المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

من خلق القرآن

للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز

رحمه الله تعالى

تحقيق

خادم العلم

عبد الله ابراهيم الأنصاري

من مطبوعات إدارة الشئون الدينية بدولة قطر

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م

اهداءات ٢٠٠٢

الدكتور/ محمد وجيه بدوي

الإسكندرية

من خلق القرآن

للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز
رحمه الله تعالى

تحقيق
خادم العلم
عبد الله ابراهيم الأنصاري

من مطبوعات إدارة الشئون الدينية بدولة قطر
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نزّل على عبده الكتاب ؛ هدى وذكرى لأولي الألباب . وأودعه من العلوم النافعة والبراهين القاطعة ، منتهى الحكمة وفصل الخطاب .

نحمدك اللهم أسبغت علينا نعمك ظاهرة وباطنة ؛ فهديتنا للإسلام ومننت علينا بنبي الرحمة وسيد الأنام . . من كان خلقه القرآن ، وفي قوله غاية البيان . . سيدنا محمد ، عليه وعلى آله وأصحابه الكرام ، أفضل الصلاة وأزكى السلام . وبعد :

فلما كان من واجب أهل العلم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وإيصال المعرفة إلى عامة الناس ، وإرشادهم وتوجيههم بالّتي هي أحسن . . كان ذلك يتطلب بالضرورة إيضاح الأقوال المجردة بالأفعال المؤكدة ، والاعتماد على الأدلة القطعية والبراهين القوية ، كي تبلغ دعوتهم قلوب سامعيهم .

وإن علماً وإرشاداً يسندهما الدليل ويصحبهما البرهان ، لا بد وأن يصلا إلى قلوب الآخرين ، ويصلحا لهداية المسترشدين ، وبالتالي سوف يستقران في الضمير اقتناعاً ، وتصدقهما الجوارح عملا وغاية .

وليس هناك من قوة إقناع ؛ أبقى أثراً في النفس الإنسانية ، من النص القرآني . فهو يأخذ بمجامع القلوب ، ويسمو بها إلى صالح العمل . ويهيمن على النفوس ؛ فيهدي الأمّة إلى طريق الخير والسعادة ، نظراً لما يتضمنه من الخصائص العلية ، والدلائل الجلية في آياته البينات ، وضربه الأمثال للناس لعلهم يعقلون .

ولقــد جهدت طويلا في البحث والتنقيب عن موضوع رشيق وأنيق يحقق هذه الغاية ؛ من حيث عرضه للمضمون . وهو في نفس الوقت عميق ؛ من حيث الوصول إلى النتيجة المبتغاة . . حتى عثرت على هذه المجموعة القيمة من المجالس والأبحاث والمحاورات للدكتور الشيخ **محمد عبد الله دراز** — رحمه الله وطيب ثراه .

والدكتور الشيخ **محمد عبد الله دراز** من علماء الأزهر المرموقين ، الذين وهبوا أنفسهم للدعــوة إلى دين الله . وكان إلى جانب علمه وورعه وتقواه يتمتع بنفس ملهمة وروح شفافة وبصيرة نافذة . حفظ القرآن الكريم وله من العمر عشر سنوات . وتخرّج من الجامعة الأزهرية وهو في الثانية والعشرين . ثقف نفسه — عن طريق المدارس الليلية — باللغــة الفرنسية ، حتى أجادها إجادة تامة ، وكأنه كان يُعد نفسه لنشر رسالة الإسلام في ديار الغرب .

أُرسل مبعوثاً من الأزهر الشريف إلى جامعة السوربون ، في فرنسا لإتمام دراسته العالية ، ولـكنه آثر أن يبدأ السلم من أولى درجاته ؛ فتقدّم لنيل شهادة الليسانس — شأن الطلبة الفرنسيين — ودرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع على أيدي كبار الأساتذة في السوربون والكوليج دي فرانس ؛ من أمثال : لويس ماسنيون ، ليفي بروفنسال ، رينيه لوسن ، وفالون وفوكونيه وغيرهم .

ثم عاد الدكتور الشيخ **محمد عبد الله دراز** إلى ربوع الوطن في مصر ، بعد غربة دامت اثني عشر عاماً ، قضاها في فرنسا ، دون أن ينخدع بزيف وبهرج الحضارة الغربية ، ولم تستطع حياة باريس أن تنال منه منالاً ، بالرغم مما ذاق من أهوال الحرب العالمية الثانية . وكان خير معبر عن حاله تلك ، ما رثاه به الشيخ **كامل الفقي** — رحمه الله — حيث قال : **يا من عشت في اللهب ولم تحترق .**

نعم بقي الشيخ محمد عبد الله دراز معتزاً بإيمانه ، فخوراً ومزهواً بالإسلام بل أكثر تمسكاً ودفاعاً عن هذا الدين الحنيف ؛ لأنه الحق من رب العالمين .

ومن مكانه — أستاذاً مدرساً — في كلية أصول الدين في الأزهر الشريف أخذ يربي جيلا من الدعاة ، وأغنى المكتبتين العربية والأجنبية بمؤلفات عالية القيمة ، جليلة القدر ، كما اتخذ من مركز جماعة الإخوان المسلمين بالحلمية في القاهرة ، مكاناً لمحاضراته ؛ فصار يعقد الندوات والمناظرات ومؤتمرات التوعية . . فاتسعت ميادينه ، وتعددت صولاته وجولاته دفاعاً وذوداً عن الإسلام ، وتوجيهاً وإرشاداً للمسلمين ؛ أن يتمسكوا بدينهم الحنيف ، ويحكموه في كافة شئونهم .

ولم يقتصر نشاطه — رحمه الله — على التدريس وإلقـاء المحاضرات والتأليف ، وعقد الندوات ، بل امتد إلى كافة وسائل الإعلام .

وهذه المجموعة من المقالات ، كانت سلسلة من الحلقات الإذاعية ، بثها راديو القاهرة ذات يوم ، أقدمها إلى إخواني قرّاء العربية ، والمسلمين في شتى أقطارهم ، وقد جعلت عنوانها : « **من خلق القرآن** » .

قمت بجمعها من هنا وهناك ، وبذلت غاية الجهد في تحقيقها وتنسيقها وتبويبها ، نظراً لأن الأشرطة المسجلة عليها ليست بحوزتنا .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور الشيخ **محمد عبد الله دراز** — رحمه الله — يجعل من القرآن الكريم نقطة ارتكازه في كل ما يعرض له من مسائل مطروحة ويعتمد اعتماداً مباشراً على النصوص ؛ في استخلاص إجاباته الشافية عن كل مسألة .

وهو في الوصول إلى ذلك ، لا يتبع الأسلوب التقليدي في بيان مقاصد النص من خلال شرحه للمفردات ، وذكر أسباب النزول واستنباط الأحكام . بل إنه يغوص بنا في أعماق النفس الإنسانية ، مخترقاً حجبها الكثيفة ، وأغطيتها

العديدة ، نازعاً عنها أرديتها ، ليصل بنا إلى الهدف الأول والمقصد المهم ؛ ألا وهو الجانب الروحي الخلقي . . جانب السلوك والباعث إليه .

وهو بذلك يوضح لنا موقف القرآن الكريم من عمل الإنسان . . ومقياس الحكم لهذا العمل أو عليه . فما يهتم به ليس هو التنفيذ المادي للأمر فحسب ، وإنما النيّة الكامنة وراء الفعل أيضاً ، ليصل بنا إلى المبدإ الأسمى الذي يضعه القرآن الكريم شرطاً للحكم على قيمة أعمالنا ؛ ألا وهو التنزّه المطلق ، بحيث يكون الهدف الوحيد للعمل هو الإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى . وهذا ما فهمه الصحابة والسلف الصالح من النص ، رضوان الله عليهم .

وفي عام ١٩٥٨ ، لقي الدكتور الشيخ **محمد عبد الله دراز** ربه شهيداً مهاجراً في سبيل الدعوة لتكون كلمة الله هي العليا ؛ إذ فاجأته أزمة قلبية حين حضوره مؤتمراً إسلامياً عقد في مدينة لاهور بباكستان .

ولقد ذكر رفيق سفره – حينذاك – الدكتور الشيخ **محمد أبو زهرة** – رحمه الله – أيامه الأخيرة معه ، فقال : **كان يؤمّنا في صلاة العشاء ، ثم يأوي كل منا إلى فراشه ، ويأوي هو إلى صلاته وقرآنه ، وكنت لا تراه إلا قارئاً للقرآن أو مصلياً .**

رحم الله الدكتور **محمد عبد الله دراز** ، ونفعنا والمسلمين بما خلفه لنا من ثروة علمية قيّمة . وندعوه تعالى أن يتقبل منا هذا العمل – على تواضعه – خالصاً لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

الدوحة في غرة رمضان ١٣٩٩ هـ.

المـوافق ٢٥ تموز ١٩٧٩ م.

عبد الله إبراهيم الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

يـد الله مع الجماعة

وبالله نستعين ، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً . وصلِّ وسلم على البشير النذير ، الهادي إلى الدين القويم ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين .

« يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ »[1] . « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا »[2] . « وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ »[3] . « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[4] .

أيها المواطنون :

إننا اليوم نجتاز حلقة هامة في سلسلة تاريخنا الحديث .

بل إن مصيرنا ومصير أبنائنا وأحفادنا ليرتبط إلى حد بعيد بالنتائج التي ستنكشف عنها هذه المرحلة من جهادنا .

---

(١) سورة الأحقاف : ٣١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .
(٣) سورة الأنفال : ٤٦ .
(٤) سورة المائدة : ٢ .

وإن كل شيء يهيب بنا أن نكون في هذه اللحظة أشد يقظة ، وأصلب عزماً ، وأرسخ قدماً ، وأعظم تماسكاً ، منا في كل لحظة مضت من حياتنا .

ذلك بأننا اليوم نجاهد في جبهتين عظيمتين : خارجاً وداخلاً .

فنحن في علاقاتنا الخارجية ، نجاهد خصماً عنيداً صممنا على أن نستخلص منه حقنا المغصوب ، وأن نقطع عليه كل حجة للبقاء في أرض الوطن . نعم . إننا قد سرنا في هذه الجبهة أشواطاً بعيدة موفقة ، بفضل العزم المصمم والإجماع المحكم الحلقات ، في شمال الوادي وجنوبه . . . غير أن عدونا ـ وقد فتَّ في عضده هذا الإجماع ، وسقطت حجته بهـــذه الوحدة ـ لا يزال يحاربنا بسلاح المماطلة والتسويف ، عسى أن يجـــد ثَغرةً في صف من صفوفنا أو فترة في عزيمة من عزائمنا .. فحذار حذار أن تعطوه هذه الفرصة للشماتة بكم ، ولانتصار باطله على حقكم . . واذكروا دائماً أن عدوكم لا يقف وحيداً في الميدان ، ولكنه يسند ظهره إلى حلفاء وأنصار ، جعلوا أنفسهم أعواناً للقوي

على الضعيف في كل مكان ، ولا سيما في البلاد الشرقية والعربية .. فقابلوا إذاً جبهتهم المتحدة ، بجبهة متحدة مثلها . الظالمون بعضهم أولياءُ بعض ؛ فكيف لا يكون المظلومون بعضهم أولياءُ بعض ؟ « إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ»(١) . وثقوا أن وحدة الحق ، على قلتها ستكون أعلى وأعزّ من وحدة الباطل على كثرتها ... ذلك أن وحدة المحقين تستند إلى مبادئ باقيـــة خالدة ، وأن وحدة المبطلين قد أُسست على جرف هار من المنافع الوقتية الزائلة . فهم كما وصفهم الله : « بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » .(٢)

أيها المواطنون :

عشرات من السنين قضيناها في رحلة مضنية من الجهاد والجلاد ، وصبرنا على ما فيها من بعد الشقة وعظم المشقة . وكان كل يوم يمضي منها ، يزيدنا إيقاظاً لوعينا ، وشحذاً لعزائمنا ، واقتراباً من غايتنا . فالآن وقد أشرفنا على نهاية الطريق ، وبدأت الأشعة الأُولى من فجر النصر تلوح أمام

---

(١) سورة الأنفال : ٧٣ . (٢) سورة الحشر : ١٤ .

أعيننا ، أيسوغ لنا أن نَفْتُرَ أو نتراخى ؟!. أيحلٌّ لنا أن تتشاغل قافلتنا بالمحاسبة فيما بينها على صغائر الأمور ومحقرات المتاع ؟!. كلا أيها الحجَّاجُ إلى كعبة الحرية. والله لكأنني أرى أعلام هذه الكعبة ترفرف أمامنا على بضعة أميال .. فهلموا هلموا !. شمِّروا عن سواعدكم ، وشدّوا أزركم ، واستحثوا مطاياكم ، وتطلعوا دائماً إلى هـدفكم وانسوا الآن متاعبكم وشكاياتكم ، وأعرضوا عن الهمز واللمز ، وترفعوا عن اللغو والهزل ، وأصمّوا آذانكم عن دعوة التردد والهزيمة ، وأتموا حجكم في هذه اللحظات الباقية أمامكم « فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ »(١) . وعند الصباح يحمد القوم السرى .

أيها المواطنون :

هذا هو موقفنا الدقيق في الجبهة الخارجية .

وليس موقفنا في الداخل بأهون منه شأناً ، ولا أقل حاجة إلى تضافر القوى وتجاوب القلوب . فنحن اليوم في فترة فاصلة بين عهـدين ؛ عهد نستدبره بمحاسنه ومساوئه

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وعهد نستقبله راجين أن يؤسس دستوره على تقوى من الله ورضوان ، وأن يرفع بنيانه سليماً من أخطاء الماضي وخطيئاته. ولقد رأيتم العالم كله يقف دهشاً من وثبتنا الحاضرة يتساءل في إعجاب وإكبار : كيف اندك ذلك الصرح العاتي في طرفة عين ، دون أن يُحدث سقوطُه رجفة ولا زلزلة ودون أن يثير هدمه أقل زوبعة من الغبار ؟. ثم يتساءل : كيف أُنزل الأرباب من عليائهم من غير قذيفة أُطلقت ولا قطرة دم أُريقت ؟ . لقد كان محو الماضي إذن معجزة . ولكن هذه المعجزة التي تمت ، ليست شيئاً في جنب المعجزة التي ننتظرها ، فإن الهدم على كل حال أهون من البناء . وإننا الآن من أمر الدستور الجديد ، والعهد السعيد الذي نتطلع إليه ، لا نزال أمام صحيفة بيضاء ، لم يسجل فيها سطر واحد أو يكاد . فكم يلزم لإقامة هذا الصرح العظيم من عقول نيّرة ، وقلوب مخلصة ، وأيد قوية أمينة ، وذخيرة من الخبرة والتجربة ؛ في الدين والسياسة ، والفقه والتشريع والجندية والتعليم ، والطب والإدارة ، والصناعة والتجارة والاجتماع والاقتصاد ، والإنشاء والتعمير ، وما شئت من عناصر النهضة ووسائلها ؟ .

فإلى هــؤلاء جميعاً ، وإلى أرباب الصحف والأقلام وإلى كل ذي رأي ، وكل ذي رغبة في الإصلاح ، نوجه نداءنا ، راغبين إليهم أن يذكروا في هذه الساعة وطنهم ، وأن ينسوا في سبيل هذه المصلحة العليا أشخاصهم .

ألا فليذكر السادة ، الذين تنحّوا عن مراكز الزعامة ، أنهم لا يزالون جنداً مجندين لإعلاء كلمة الحق والعدل والحرية والكرامة ، حيثما كانوا ، وأنهم لن ينتقص من أقدارهم انخراطهم في سلك الجندية المتواضعة ، بعد تلك المناصب الرفيعة ، بل إنهم سترتفع بذلك هاماتهم ، كما ارتفعت هامة ابن الوليد وغيره من سلفنا العظيم ، بهذا النوع من التضحية الأدبية الرائعة . ألا وليذكر الذين انتقص شيءٌ من أرباحهم أو ثرواتهم ، أن الشأن كل الشأن ليس في ضخامة الأرقام ، ولكن في إجادة التنظيم ، وحسن النفع والانتفاع . على أني أبشرهم بوعد الله لأمثالهم ، فأقول لهم مقالة القرآن الكريم : « إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(١)

---

(١) سورة الأنفال : ٧٠ .

ألا وليـــذكر الذين نالهم أذى ، أو ساءتهم مساءة ما في هذا العهد الجديد ، أن ذنب المواطن ليس ذنب الوطن وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن حق الوطن ما زال دَيْناً في عنق كل فرد من بنيه .

هكذا ينبغي لنا اليوم أن نُنَقِّيَ صدورنا من كل هذه الشوائب ، وأن نتقدم إلى العمل الصالح صفاً واحداً ، بل يداً واحدة ، وقلباً واحداً : « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً »[1] . ويد الله مع الجماعة ، « وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ »[2].

(١) سورة الأنبياء : ٩٢ .   (٢) سورة طه : ٤٧ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّـرْ »

طهر شامل للمظهر والمخبر جميعا

الحمـد لله وكفى ، والصلاة والسلام على أفضل من اصطفى ، وعلى آله وأصحابه أهل الصدق والوفا .

وبعد : يقول الله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »[1] ، هذه هي الوصية الثانيـة ، من الوصايا الخمس ، التي يتـألف منها أول درس من الوحي تلقاه محمد الرسول . ويتـألف منها في الوقت نفسه صورة جامعة منمنمة من دستور التربيـة القرآنية ، الذي هو أجمع الدساتير وأوفاها .

كانت الوصية الأولى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ »[2] نبراساً قوياً أضاء لنا رقعة الوجود ، فأرانا فيها مكاننا ومكانتنا وحدد لنا فيها وجهة سيرنا وقبلتنا ، ثم كانت هتافاً عالياً

(١) سورة المدثر : ٤ .   (٢) سورة المدثر : ٣ .

هتفت بنا أن نوجه إلى هذه القبلة أبصارنا وبصائرنا . . .
قالت لنا ـ وما أصدق وأعدل ما قالت ـ : أيها الإنسان .
لئن كنت قد هبطت من علياء الفردوس إلى هذه الأرض المتواضعة ، لقد هبطت إليها واقفاً على قدميك ، ولم تهبط إليها مكباً على وجهك ويديك . ألم تر كيف خلقت منصوب القامة مرفوع الهامة ؟ . فجعل نصيب الأرض منك أن تطأها برجلك ونعلك . أما ناصيتك ، فقد بقيت مرفوعة إلى السماء ، تذكرك بما هنالك ومن هنالك ، من وطنك وأهلك . إن هذا الرأس المرفوع يتأبى لك بفطرته أن تنكسه وتقلب وضعه ، خضوعاً لشيء من المخلوقات أو ركوعاً لأحد من المخلوقين . . .

أيها الإنسان . لئن كان لك في هذه الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، لقد علمت أنك سوف تخرج منها إلى مستقر آخر ، متى جاء هذا الحين . . . فهل تحب أن تعرف حقيقة مصيرك ونهايتك ؟ . . . ما عليك إذن إلا أن تنظر إلى أسلوب مسيرك في بدايتك . فإن كنت ممن يسيرون رافعي رؤوسهم ، متطلعين إلى الأفق الأعلى فـ (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ

لَفِي عِلِّيِّينَ »[١] . وإن كنت ممن ينكسون رؤوسهم أمام صنم الدنيا فَ «إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ »[٢] . هكذا يكون مستقرك في النهاية ، حيث كان يتوجه بصرك في البداية . « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[٣] .

أيها الإنسان . إن لك في السماء مكاناً يناديك ، ففرّ إليه ، بل طر إليه ... أقم وجهك للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، ولا تكونن من المشركين : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » .

لكن هنا يتساءل المتسائلون ، ويتعجب المتعجبون : بأي جناح تطير هذه الأرواح إلى مستقرها الأرفع ، بعد أن حملت من أوزار المادة وأثقالها ما أوهن أجنحتها ؟! . وكيف تطمع هذه الأرواح أن تعود كرة أخرى إلى ذلك الرفيق الأعلى ، وقد أصابها منذ هبطت إلى هذا الكوكب ، من غبار الدنيا وغبرتها ، ومن شعثها وقترتها ، ما يباعد بينها وبين ذلك الأفق الأقدس الأطهر ؟! .

---

(١) سورة المطففين : ١٨ . (٢) سورة المطففين : ٧ .

(٣) سورة الملك : ٢٢ .

يتساءلون ويعجبون. إنهم يرونه بعيداً ولكن القرآن الكريم يراه قريباً جد قريب ... ها هو ذا يرشد الأرواح إلى طهورها الذي يرد إليها اعتبارها . ها هو ذا يهيئ للأرواح مصعادها الذي يعيدها إلى عزة مكانها وشرف جوارها : « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ »[1] .

نعم .. لقــد كانت الوصية الأُولى حداءً للأرواح يدعوها إلى الملإ الأعلى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » ... فجاءت هذه الوصية الثانية ، تنصب للأرواح معراجها ، الذي تعرج فيه لتلبية ذلك النداء : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » .

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » . إنه لمعراج حقاً . ولكن أليس حسب الكسالى مثبطاً عنه أنه معراج ؟!. فالصعود ولو على أجنحة الملائكة والطير ، أقل يسراً ورفقاً من الهبوط ، فما بالك وهو معراج طويل ؟!. فإن واجب الطير ليس عمل ساعة وإنما هو قرين العمر . وليس شغل يوم ، ولكنه مشغلة الدهر . إن الغبـــار متلاحق متواصل ، لو ترك في أوقات متوالية تراكمت طبقاته ، وتزايدت مشقاته ، وهو غبار أخاذ نفاذ

---

(١) سورة القمر : ٥٥ .

ينفذ من ظاهر الأغشية والأغطية ، إلى باطن الصناديق والأوعية . وهو غبـــار تتداعي أجزاؤه ، وتتجاذب أطرافه حتى ليفضي اليسير منه إلى الكثير ، والصغير منه إلى الكبير.

ألا فلندع جانباً هؤلاءِ الكسالى ، الذين كره الله انبعاثهم فثبط عزائمهم ، ولننظر إلى فضل الله علينا وعلى الناس ، إذ جعل لنا في كل مرحلة من مراحل هذا الغبار الثائر ، سبيلا إلى التنزه عنه ، أو إلى التطهر منه . ذلك أن هذا الغبار – وإن نفذ من غلاف إلى غلاف ، وإن اقتحم على النفس أسوارها ، حجاباً بعد حجاب– لا يبلغ جهده أن يصل إلى جوهرها الكمين في قراره المكين كلا ، ولو فعل ، فابدل مثل طبيعتها ، وما سلبها مـــادة نـورها وحرارتها . . . كلا . ولو فعل ، إذاً لسقط التكليف ، ورفعت التبعات وزالت حجة الله على الناس . . . وإنما قصارى أمره – ما دام زمام المسؤولية في أيدينا – أن يســد على النفس منافذ حسها من قريب أو بعيد ، وأن يغشي زجاجة نورها ، بحجاب رقيق أو غليظ فيدسيها كما قال الله تعالى ويخفيها ، ولكن ما هو إلا أن تزال عنها تلك الغشاوات والحجب ، فإذا هي

قد تجلى نورها ، وتدفق ماءُ حياتها ، وعادت كما كانت إلى السير في مواجها ...

أجل . إنه لأمر ما لم يقل القرآن : ونفسك فطهر . أرى ذلك – والله تعالى أعلم – لكي لا يقع في حسبان حاسب أن الله يريد أن يرهقنا عنتاً لا طاقة لنا به ، وأن يطالبنا بعمل في صميم الروح الذي هو من خاصة شأنه ... وتلك كانت شبهة اليائسين والمتشائمين ، الذين زعموا أنه لا حيلة لنا في تهذيب نفوسنا ولا أمل لنا في إصلاحها ، لأنها من صنع الله الذي لا تبديل لخلقه ... لقد التبس الأمر على القوم ، فخلطوا بين حقيقة النفس وجوهرها ، الذي لا سبيل لنا عليه ، وبين ما يحيط بها من غلفها وحجبها وآثارها وملابساتها ، التي وكل إلينا علاجها وتدبيرها ... وتلك هي الثياب التي أمرنا الله تعالى بتنقيتها وتصفيتها ، حيث يقول : « وَثِيَابكَ فَطَهِّرْ » .

أما بعد : فما كنه تلك الثياب التي أمرنا بتطهيرها ؟ .

أما الحرفيون الماديون ، فإنهم يفهمون منها أدنى معانيها إلى حسهم ، ذلك اللباس الذي توارى به أبداننا . وأما

المتفقهون في أسرار اللغة والدين ، فإنهم يفهمون منها شمائل الأخلاق ، التي قال الله في شأنها : « وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »[1] . والقول الجامع في هذا المعنى : هو أن النفس يحيط بها أربع طبقات ، كل واحدة منها تعد ثوباً لها . أدناها إلى جوهرها طبقة الصفات والأحوال النفسية ؛ وهذا هو ثوب الشعار.. ثم يلي ذلك ثلاث طبقات من الدثار ؛ طبقة السير والأعمال ، ثم طبقة البنية والجثمان ، ثم طبقة الملبس الذي يكسو ذلك الجثمان ... والقرآن في آياته المفصلة يناشدنا أن نحرص على طهارة الطبقات الأربع جميعاً ، بل على طهارة كل ما نلامسه ونباشره من مكان ومصلى ومسكن ؛ وعلى التحلي بكل حسن جميل ، والتخلي عن كل دنس ذميم ؛ حسياً كان أو معنوياً : « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ »[2] . « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ »[3] . « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ »[4] . « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ »[5] . « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا . وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ »[6] .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٦ .
(٢) سورة الأنعام : ١٢٠ .
(٣) سورة الأنعام : ١٥١ .
(٤) سورة الأعراف : ٣١ .
(٥) سورة الحج : ٢٦ .
(٦) سورة التوبة : ١٠٨ .

غير أنه لما كانت عناية القرآن دائماً بالجوهر والمخبر أشد منها بالصورة والمظهر ، كان الهدف الأول الذي تتجه إليه الوصية ها هنا ، هو الجانب الروحي الخلقي ، جانب السيرة والسريرة . وهذا هو الذي فهمه الصحابة والسلف - رضوان الله عليهم أجمعين - فليكن هو محور أحاديثنا التالية ، إن شاء الله تعالى .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

بين البخل والسرف

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونصلي ونسلم على رسوله ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد :

سنفترض الآن أننا ربحنا الجولة الأولى من حملة التطهير ، التي أمرنا بها القرآن الحكيم ... سنفترض أننا أمام رجل جاءته موعظة من ربه تنهاه عن رذيلة البخل فانتهى . وسمع وصية من الله تحضه على الإنفاق والبذل فاتبعها ... عرف أن حصر همه في جمع المال وتعديده يشقيه عبثاً ويعييه . وعرف أنه لا محالة مفارقه يوماً ما تركة ؛ ليستمتع به من لم يكن يهمه ولا يعنيه . وعرف أنه سيلاقيه أخيراً ، لا ملكاً ولا انتفاعاً ، ولكن عذاباً واصباً في الآخرة ، فوق ما كان همّاً ناصباً في هذه الدنيا .. عرف ذلك كله وآمن به فنفعه إيمانه ، فبدل حرصه على

المال زهداً فيه ، وتحولت عبوديته له سيادة وسلطاناً عليه ؛ انفرجت أنامله المعقودة ، وانبسطت كفه المقبوضة ، وأصبح شعاره : أنفق .. أنفق .. بعد أن كان مثله الأعلى : أمسك .. أمسك .

لكن ، ألست ترى أن حل هذه المشكلة الأولى ، هو نفسه إثارة لمشكلة أخرى ؟ . ألست ترى أن سلامته من هذا الداء هي بعينها مدرجة ومزلقة إلى واد آخر ؟ . لقد كفيناه آنفاً من مرض الإمساك والتقتير . . ألسنا بهذا العلاج نسلط عليه جراثيم من فصيلة الإسراف والتبذير ؟ .

كلا . إن القرآن الحكيم لم يدع هذه النزعة الجديدة تنطلق انطلاقها وتجاوز مداها . لقد وضع أمامها سدوداً وحواجز تقف بها دون طرفها الأقصى ، كما وضع أمام النزعة الأولى سدوداً وحواجز تقف بها دون طرفها الأدنى . فكما قال : « لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » قال : « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ »[1] . وكما قال : « وَلَا تُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » . قال : « وَلَا تَعْتَدُوا »[2] . كما قال : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا » قال : « وَلَا تُسْرِفُوا »[3] .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٩ . (٢) سورة المائدة : ٨٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٣١ .

هما إذاً طرفان ذميمان ، خيرهما شر . وموردان يفيضان أحلاهما مر .. بلى . على التعيين والتحديد ؛ إن هذا المرض أفحش ضرراً وأعظم خطراً ، وإن اشتركا في أصل الضرر والخطر . فالممسك والمسرف كلاهما يضع المـــال في غير موضعه . غير أن الممسك يضعه في مكان عزيز حريز فما يدرينا ؟. لعل الله يقيض لهذا المـــال بعد ذلك ، من يثيره من مكمنه ، ويوجهه الوجهة السديدة التي يرضاها الخلق والدين ... أما المسرف فإنه حين وضعه في غير موضعه وضعه في مضيعة ؛ لقد بعثره وبدده ، واستهلكه وأهلكه فلا سبيل إلى إعادته وتصحيح وجهته .. الممسك يفوّت مصلحة المال إلى أمد ، والمسرف يفوّتها إلى الأبد . الممسك يعلقها ويعطلها ، والمسرف يمحوها ويبطلها . الممسك - بقعوده عن الإنفاق في الخير - يضر من طريق سلبي ، والمسرف - بإنفاقه في سبيل الشر - يضر من طريق إيجابي . الممسك شيطان ساكن ساكت . والمسرف شيطان متحرك ناطق ، عامل دائب .. لا جرم كان في حكم الله تعالى أحق باسم الشيطان : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً »[1] .

(١) سورة الإسراء : ٢٧ .

هكذا حدثناك عن رذيلتي الإمساك والإسراف ، كأنهما من فصيلتين مختلفتين . . وفي الحق أنهما لا يختلفان إلا في باديء الأمر وفي رأي العين ، أما في نظر الحكمة الفاحصة التي تعيش الأشياء من أعماقها ، فإنهما يبدوان فصيلة واحدة من المرض الخلقي ، مردها إلى جرثومة واحدة . نعم . إن محور الشر في داء البخل ، ليس في حفظ المال وصيانته ، لكن في حبسه عن مصارفه. كما أن موطن الضرر في داء الإسراف ، ليس في إنفاق المال وبذله ، ولكن لما أنفق في غير موضعه ، كان ذلك حرماناً لأهله ومستحقيه وهذا هو بيت القصيد في نظر الحكيم .. هكذا رجع الداء إلى أصل واحد ، وعنصر واحد ؛ وهو حبس المال عن وجوهه وحرمان أرباب الحقوق منه ، سواءٌ أبقي في يد صاحبه فسميناه بخلاً وإمساكاً ، أم تبدد في أيد أخرى ، فسميناه تبذيراً وإسرافاً . فهذا الإسراف نفسه هو في نظر الفضيلة إمساك ؛ لأنه حبس للمال عن أهله. وهذا التبذير هو التقتير بعينه على الوجوه الأخرى ، التي هي أحرى بالإنفاق .

ما تلك الوجوه الحرية بالإنفاق ؟. والتي إذا لم نبذل المال فيها ، كان ذلك وصمة لنا بإحدى الرذيلتين ؟ . وإذا بذلنا

المال فيها ، كان ذلك طهراً لنا من الدنسين جميعاً ، وشفاء لنا من الدائين كليهما ، في دفعة واحدة ؟ .

يجيب المتطرفون من أهل الأَثرة والأَنانية : نفسك .. نفسك . ومن ورائك الطوفان .

ويجيبنا المتطرفون من أهل الإيثار والغيرية : احرق شمعتك . احرق شمعتك . لتضيء للناس . وأهلك نفسك لتحيا الناس .

أما القرآن الحكيم ، فإنه يجيبنا بحكمته الجامعة : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا »[1] .

نعم . إنها الموازنة ، تراعى فيها الحقوق كلها ، وتؤدى فيها الواجبات جميعها ؛ إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لضيفك عليك حقاً : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »[2] . فأعطي كل ذي حق حقه . أما أهل الآخرة المترفون ، فإليهم يوجه نداءُ القرآن الحكيم : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .　　(٢) سورة المعارج : ٢٤ ــ ٢٥ .

تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ »[1] . وأما الغيريون المتطرفون فإليهم تساق الحكمة النبوية : (يَأْتِي أَحَدُكُمْ بِكُلِّ مَالِهِ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ ، ثُمَّ يَقْعُدُ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ) . (إِنَّمَا الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنًى) . وَ (إِنَّكَ إِنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) .

نعم . إنها موازنة . ليست موازنة عددية تتكافأ فيها الأرقام في كل باب ، ولكنها موازنة رشيدة تختلف باختلاف الناس وترواتهم وأعبائهم وسائر ملابساتهم . موازنة تراعي فيها مصالح الدنيا والآخرة جميعاً على بصيرة وعلى قدر : « أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ »[2] .

« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »[3] .. اللهم آمين .. آمين .

(١) سورة الأحقاف : ٢٠ . (٢) سورة الرحمن : ٨ — ٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٠١ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

كيف عالج القرآن الكريم رذيلة البخل

الحمد لله ولي الصالحين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه وبعد :

أخي المسلم .. نحن معك وقول الله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ». عرفنا أن القرآن الكريم حين أمرنا أن نطهر ثيابنا أرادها منا طهارة شاملة كاملة ؛ حسية ومعنوية ، ظاهرة وباطنة . ولقد تساءلنا : أي نوع من الطهر ... خصه القرآن بمزيد من عنايته ، وجعل له الصدارة في طليعة دعوته ؟. فتبين لنا بعد البحث والاستقصاء ، أن حملته التطهيرية الأولى كانت مركزة على مكافحة نوع من الدنس والمرض ، يجمع الفاحشتين الخلقية والاجتماعية ، تضرب جذوره في أعماق النفس ولكن مخالبه تنشب في أحشاء الأمّة والدولة ، ذلك هو داء الشح والبخل ، أو الإمساك والتقتير . . ولم يكتف

القرآن بأن سماه باسمه ، ولكنه مضى يكشف لنا عن مصادره ومنابعه . فأرانا كيف ينظر الأشِحّاءُ إلى حطام الدنيا من خلال عدسة مكبرة مزورة ، وكيف أورثتهم هذه النظرة الخاطئة ارتفاعاً فاحشاً في درجة حبهم لهذا الحطام : « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا »[1] . هكذا وضع القرآن يدنا على رأس المرض وجرثومته . . فهل تراه بذلك قد أدى كل مهمة الطبيب ، وقام بكل رسالته ؟ . كلا . لقد بقي شطرها الأخير والخطير . . إذ ما يجدي وصف المرض وتشخيصه إذا لم توصف الوسائل الناجعة لعلاجه أو الوقاية منه ؟! .

فلننظر الآن كيف وضع القرآن قدمنا على جادة الطريق لنزاول هذا العلاج ؟ . إنه علاج يتألف من ثلاثة عناصر : عنصر يزوّد العقول بالحقائق الأولية . وعنصر يمد الإيمان بالحقائق الغيبية وعنصر يغذي العزائم بالوسائل العملية .

ولقد يأخذك العجب ، كيف يكون في الدنيا عاقل تغيب عنه بعض الحقائق الأولية ، ويحتاج إلى التزود منها ؟! . ولكن ، أليست النفسية الشحيحة من شأنها أن تستر عن

---

(١) سورة الفجر : ٢٠ .

صاحبها هذه الحقائق ؟. فالبخيل إذا استولى حب المال على قلبه ، أصبح مرهف الإحساس به ، إلى حد أنه يعدّه جزءاً متمماً لجسمه وروحه . فإذا دعوته إلى الإنقاص منه ، أحس كأن روحه بدأت تستل من بدنه ، وجعل ينظر إليك نظر المغشي عليه من الموت ، نظرات كلها توسل والتماس ، كأنه يقول : رويدك .. رحماك !! رفقاً بي . لا تمس لي طعاماً ولا شراباً ولا درهماً ولا ديناراً !! إن كل فلذة تقتطعها من مالي ، إنما هي عضو تنشره من جسمي !! فإن هلك مالي هلكت نفسي وإن بقي مالي بقيت !! إنه ليرخي أمامي حبل الأمل وينسيني محتوم الأجل !! إني لأستمد من زيادته واكتماله قوة وفتوة ومن بقائه ودوامه شعوراً بالبقاء والخلود !. هكذا قد يصل حب المال بصاحبه إلى نسيان هذه الحقيقة الأولى ؛ وهي أنه لم يكتب لبشر قبله الخلود ، وأنه لم يكن تخليد المال تخليداً لصاحبه في عهد من عهود البشرية ، فيكشف القرآن عن بصره هذه الغشاوة ليوقظه من هذه النومة العميقة : « الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كلا .. »[1]

---

(١) سورة الهمزة : ٢ــ ٤ .

« أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً »[1] ... فإذا لم يكن من الخالدين لينتفع بهذا المال في حياته !. ولم يدخل في حسابه يوماً أن يبر به أهلاً ولا ولداً !. ولا أن يمنح منه الآخرين عوناً ولا رفداً !. ولا أن يكتسب به ثناء ولا حمداً !. ففيم إذاً يجمع ماله هذا المسكين. أيحسب أنه سيحمله معه إلى قبره ؟!. هل غابت عنه هذه الحقيقة الأخرى ؟ . ألم يعلم أن الميت يتبعه ثلاثة : أهله وماله وعمله؟. وأن اثنين منها يرجعان ولا يبقى معه إلا واحد ؛ يرجع عنه أهله وماله ولا يبقى إلا عمله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ »[2] . لا خلود إذاً أيها الكانزون . لتتمتعوا بأموالكم في هذه الحياة ، ولن تخلد هذه الأموال معكم في أكفانكم ، لتؤمنوا بها وحشة قبوركم . تلك حقائق أولية يعرفها كل ذي إدراك سليم مؤمناً كان أو ملحداً ، وأنه ليكفي أدنى الانتباه ليتعين بها للأشحاء مبلغ العبث ، بل مبلغ السخف والسفه في

---

(١) سورة القصص : ٧٨ .   (٢) سورة الأنعام : ٩٤ .

تجميع هذه الأموال التي سيفارقونها ولا ينالون منها شيئاً لا من قبل ولا من بعد .

أما المؤمنون بالحقائق البينة ، فقد ادخر القرآن لهم منها نذراً أخرى ، تنبئهم أن هذا الضن والمنع ليس عبثاً وسخفاً وحرماناً عاجلاً فحسب ، بل هو إلى ذلك جرم كبير وشر مستطير: « وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] . « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ »[2] . ألا فليوازن الكانزون من المؤمنين ، بين شهوة الاكتناز ولذته الحاضرة العابرة ، وبين عواقبه الوخيمة في الدار الآخرة .

هكذا زودنا القرآن الحكيم بمجموعتين من الحقائق ؛ حقائق من عالم الغيب وحقائق من عالم الشهادة ، من شأن

(١) سورة آل عمران : ١٨٠ . (٢) سورة التوبة : ٣٤ــ ٣٥ .

التأمل فيها أن يحل عن قلوبنا عقدة هذا الحب الأعمى وأن يطهر ثيابنا من درن هذا الطين اللازب .

غير أن هذا العلاج المزدوج ، إن استطاع أن يحك من ثيابنا جرم هذا التراب ، فلن يستطيع أن يمحو عنها آثاره ، وإن استطاع أن يحل عن قلوبنا عقدة هذا الحب ، فلن يقطع عنها حباله ... فطرة الله التي فطر الناس عليها فلا سبيل إلى تبديلها ، بل ولا خير في تبديلها ، إذ لو انقلب حب المال مقتاً له وازدراءً ، وأصبحت قيمته في نظر الناس هباءً فأي جهد يحمد للمرء في بذله ، وأي فضل له في التضحية ؟ . من الخير إذن أن يبقى فينا شيءٌ من حب المال ـ وسيبقى لا محالة ـ قوياً أو ضعيفاً أو مناوبة بين القوة والضعف . . ومن هنا نعرف السر في أن القرآن الحكيم لم يقتصر على هذا العلاج النفسي المزدوج ، ولم ينتظر أن يبلغ به غايته القصوى ، ولا أن يصل بحب المال فينا إلى حده الأدنى بل أخذ يمدنا بعلاج ثالث عملي يزوّد به عزائمنا . . ذلك هو أن ندرب أنفسنا على بذل المال وإنفاقه مراغمة ومقاومة ؛ مراغمة لأهوائنا ومقاومة لرغائبنا ، حتى يصبح التزهد زهداً والتسخي سخاءً ، والتكرم كرماً والتطبع طبعاً .. أليس أفضل

الصدقة صـــدقة الصحيح والشحيح ، الذي يخشى الفقر ويأمل البقاء ؟. أليس البرّ هو إيتاءُ المال على حبه ؟. أوليس الأبرار هم الذين « يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً »[1]. « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[2]

---

(١) سورة الإنسان : ٨ . (٢) سورة الحشر : ٩ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

الطهر من داء الحرص والشح

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه .

وبعد :

لكأني بالقلوب الطيبة المستجيبة تقول همساً : ليتك أيها الداعي تسمع. ها نحن أولاً ؛ نحب أن نتزكى ونتطهر. ولكن بأي جانب تحب أن نبدأ ؟ ذلك أن عيوب النفوس وآفاتها ، ومطالب الأعمال وسؤالها ، أكثر من أن يحصيها العد ، وأشق من أن يقضى عليها بجملة واحدة من الجهد . فلو ذهبت تأخذنا بها جملة ، إذاً تقعدنا عنها جملة .. فابدأ لنا بأن تعرض علينا داءً واحداً نحاول دواءه ، وثوباً واحداً نعالج طهره ونقاءه. إن لنا ثياباً لاصقة بجلودنا ، وثياباً بادية لعيون الناس .. إن علينا أن نجاهد عيوباً في داخلية نفوسنا ، وفي صميم حياتنا الفردية . وعلينا أن نكافح عيوباً

في أسلوب معاملاتنا تمس حياتنا في الجماعة . فأي لون من الجهاد تختار أن يكون هو أول همنا ؟ . وأي نوع من المرض توصينا أن نتخذه أكبر عدو لنا ؟ .

ألا فليذكر السائلون أن القرآن الكريم هو الداعي وأنه هو الذي يختار .. وقد اختار .. اختار لنا نوعاً مركباً من النوعين : نوعاً ينبت خلقاً في أرض القلب ، ثم تخرج ثمرته عملاً له أعظم الأثر في كيان المجتمع ، وأنه لكي نعرف ماهية ذلك النوع الذي توجهت إليه غاية القرآن - بادِئَ ذِي بدءٍ - يجمل بنا أن نتصفح السور الأُولى التي جاءت في طليعة الوحي ، بل التي نزلت في الصدر الأول كله من الحياة النبوية ؛ أعني قبل الهجرة .. إن عدة السور المكية بضع وثمانون سورة ، إذا استثنينا منها السور المتصلة بالعقائد والقصص والكونيات وماإليها ؛ من الحقائق النظرية أو المبادئ الكلية فحسب ، وهي زهاء نصف هذا العدد وجئنا إلى النصف الآخر الذي ورد فيه شيء من الوصايا العملية المفصلة ، لننظر في مادة تلك الوصايا وموضوعها ، فإننا سنرى عجباً .. سنرى أن ثلاثة أرباع هذه السور ، أو على وجه التحديد ثلاثاً وثلاثين سورة

توجه حملتها لاستئصال مرض بعينه ، إما على الإفراد أو بضميمة أمراض أخرى إليه .

أتدري ما هذا المرض ؟. إنه مرض الشح والمنع للخير . مرض الإمساك خشية الإنفاق. مرض انطواء الأغنياء على أنفسهم وإغماض عيونهم عما حولهم من حاجات الأمّة والأفراد . إنه مرض الإسراف في حب المال ، مرض الحرص العضوض على هذا الحطام .

فلنستمع إلى نموذج من وصايا هذه السور الأولى ؛ إنها ثورة غاضبة على النفوس الشحيحة ، والثروات المكنوزة والأموال المضمونة على أهلها أو على أبواب استحقاقها ، وهي في الوقت نفسه دموع رحمة وحنان على اليتيم والمسكين والأسير والرقيق والسائل والمحروم ، فمن شاء أن يستمع إليها ، وهي في ثورة غضبها على ذلك المجتمع المادي الحريص الشحيح الكنوز ، فليستمع إلى هذه الصيحات المزمجرة : « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ في الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ، نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ »(١) . وويل للمشركين الذين

---

(١) سورة الهمزة : ١ ـ ٦ .

لا يؤتون الزكاة : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »(١) . « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاوُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »(٢) . « يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ »(٣) . « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ»(٤) .

ومن سرَّه أن ينظر إلى الآيات الكريمة ، وهي تقطر حناناً ورحمة على الفئات البائسة المحرومة ، فليستمع إلى هذه المناشدة الحارة العطوفة : « فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سورة التكاثر . (٢) سورة الماعون .

(٣) سورة المدثر : ٤٠ — ٤٤ . (٤) سورة الحاقة : ٣٠ — ٣٤ .

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ »[1] . « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا »[2] .

هكذا يضع القرآن يدنا من أول يوم على سوطن الداء الدوي ، ومكمن المرض العضال : « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » . ها هنا رأس كل خطيئة . ها هنا أس كل دنيئة .. إنه مرض ذو شعبتين : شعبة تنخر في نفسية الفرد ، وشعبة تفت في كيان الأمّة والدولة . فالإسراف في حب المال إذا نبت في قلب امرىء أذل عنق صاحبه ، وهوّن عليه كل مهانة في سبيل طلبه ، وقعد به عن كل مكرمة في أسلوب إنفاقه فأصبح هو السيد المالك ، وأصبح هو العبد المملوك .. من زرع الحرص حصد التنافس والتحاسد ، ثم انشقاق الخصام ثم تقطيع الأرحام ، ثم سفك الدماء ، ثم ما شئت من محن تتوارثها الأجيال .. والشح مرض وبائي سريع العدوى

(١) سورة البلد : ١١ — ١٨ . (٢) سورة الفجر : ١٥ — ٢٠ .

والانتقال ؛ إن فلاناً أيسر مني وأقدر ، ولم يبذل في هذا السبيل شيئاً من المال . ألست أحق منه بحفظ مالي وادخاره ؟ . فإذا تفشى في أمّة ، هذا التنافس في الحرص والشح ، وقف دولاب حركتها وتعوق سير نهضتها ، وبدأت الشيخوخة تدب في أعضائها ، وطمعت فيها أعداؤها ، بل غدت نهباً للمطامع ، وسلعة يسومها كل مشتر وبائع .

الشح إذن داء تتولد منه أدواء . إنه عش تفرخ فيه الأورام ووكر يسكن فيه وحي الشيطان . ينفخ الشيطان في روع صاحبه ليزين له فاحشة البخل ، وليجعله من خوف الفقر في فقر . يقول له : أمسك عليك مالك . إن المال شقيق الروح وعماد الحياة !! .. كلمة حق يراد بها الباطل . فالله لا يأمر أحداً أن يبذل كل ماله ، وأن يذر نفسه وعياله عالة يتكففون الناس ، وإنما يريد منا أن ينفق كلٌّ من فضل ماله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وذلك ليجعل لنا متعتين وسعادتين ؛ متعة بالاستغناء عن الغير ، ومتعة بإغناء الغير . سعادة مباشرة تتذوقها وتجرها وسعادة أُخرى هي صدى للسعادة التي نشبها وننشرها . والله بعد ذلك يعِدُ

المنفق خلفاً والممسك تلفاً ، على رغم أنف الشيطان : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »[1] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٨ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

فريضة الكسب

اللهم لك الحمد ، لا نحصي ثناءً عليك ، والصلاة والسلام على مرشد الأمة إلى الهدى ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

ما أكثر البقع واللمع في ثوب أخلاقنا ؛ وما أطول الطريق على محبي الطهر والجمال الخلقي ؛ حين يتعهدون هذه البقع واللمع بالإزالة والتنقية واحدة بعد واحدة .

كانت أولى حملات التطهير ، التي ندبنا إليها القرآن المجيد ، حملة المكافحة لـداءِ الجمع والمنع – جمع الأموال واكتنازها ، ومنعها عن الخروج من يد صاحبها – فما زالت الآيات الحكيمة تعالج من النفوس أبوابها المغلقة ، حتى فتحت أغلاقها ، وعقدها الموثقة ، حتى حلّت وثاقها . . . كرهت إلينا خلة الضن والإمساك ، وحببت إلينا شيمة البذل والإنفاق ، وما برحت تحببنا في هذه وتبغضنا في

تلك ، حتى خشينا أن يكون الانطلاق في بذل المال انطلاقاً إلى غير مدى ، وأن يكون الزهد على غير هدى ... وإذا بالحكمة القرآنية تضع الأمور في نصابها ، وإذا هي حين فتحت الكنوز أقامت الحراس على أبوابها ، لورودها وصدورها وتنظيماً لوجوه توزيعها توزيعاً بالقسط يوفر على النفس حظها المقسوم ، ويؤدي للغير حقه المعلوم ، لا حرمان ولا تقتير ولا إضاعة ولا تبذير ، وكان بين ذلك قواماً .

هذه الوصية الثنائية ، هل تراها وصية عامة شاملة ؟. وهل كل فرد من الناس أهـل لأن يوجه إليه خطابها ؟. لننظر... أليس في الناس المرزوق والمحروم ؟. أليس فيهم الواجد والفاقد ؟. فمن لم يجد ما ينفقه أو يمسكه ، كيف يقال له : لا تمسك ولا تقتر . ولا تسرف ولا تبذر .. إنها إذاً وصية لشطر واحد من شطري الأمّة ، فما خطب شطرها الثاني ؟!. إنها وصية لأرباب الأموال فما بال من لا مال له ؟!. هل أعدّ القرآن لهم وصية مقابلة ؟ . نعم . وإنها بدورها لوصية ثنائية، تهدي كذلك إلى طهارة مزدوجة .. وصية لمن لم يجد ، أن يجدّ ليجد . ثم وصيته ألا يتطلع إلى

ما في يد الواجدين . . دعوة إلى شرف العمل الكاسب ، الذي يغني صاحبه وينشر الغنى من حوله على العاجزين ، ثم دعوة إلى أشرف نوعي الغنى وأكرمهما : (لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ) . وتساميها عن موقف الحاجة والضراعة ، وعن ذل السؤال والالتماس . بل عن التشهي والتمني لما في أيدي الناس . بهاتين الوصيتين الذهبيتين جاء الذكر الحكيم في آية ما أحرانا أن نتدبرها ، وأن نزن أنفسنا بميزانها : « وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »[1] .

يقول الله تعالى لهؤلاء الذين يمدون أعينهم إلى ما عند غيرهم : إنكم في التماس الخير لأنفسكم ، تتركون الفجاج الواسعة الآمنة ، وتميلون إلى المسارب الضيقة الموحشة . إنكم تتركون البحر وتستقون من الغدير . ما لكم ولما في أيدي الناس ؟ ! . فإنما من عندي نالوا رزقهم . وإن أبوابي مفتوحة

---

(١) سورة النساء : ٣٢ .

لكم ولهم . تحولوا عن هذا الطريق ، فإنه طريق شائك غير مسلوك وقد مهدت لكم بدله طريقين مسلوكين ، فولوا وجوهكم شطرهما . دونكم الأرض الوسيعة ، جعلتها لكم ميدان الكسب والعمل ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقي . دونكم السماء الرفيعة ، جعلتها لكم قبلة الدعاء والأمل فإياي فادعوا وفضلي فالتمسوا . . .

تلك وصية الله . فماذا كان موقفنا منها ؟.

وأسفاه . لقد وقف أكثرنا منها موقف الإباء العنيد . فلا إلى ميدان الأعمال يبرزون ، ولا إلى قبلة الآمال يتوجهون ولكنهم يحطون أنظارهم على طرف أنوفهم ، ويفتحون أعينهم على رزق الجار والقريب والصاحب والزميل ، يحصونه ويعدونه عداً ، ثم يقولون : أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟. ألست أحق من فلان ، هذا الغني الغبي ؟ !. ألست أفصح منه لساناً ؟ !. وأشجع جناناً ، وأكبر سناً وأوسع علماً وأشرف بيتاً ؟ !. ولكنه على رغم ذلك أكثرُ مني مالاً وأعزُّ سلطاناً ، والدنيا عليه أشد إقبالاً . . يا ليت لي مكانه وله مكاني . .

هكذا يصنع الناس . . . هكذا يصنع الفاقد للشيء

ينفق عمره في التطلع إلى حظ واجده .. وهكذا يصنع المقلُّ .. يضيع وقته في حساب رزق المكثر . ولعله لو دقق الحساب لوجد نفسه قد أُوتي من العلم والحكمة ، أو من الصحة والقوة أو من الشرف والكرامة ما هو أعز قدراً وأغلى ثمناً ، ولكنه ينسى الكنز الذي في يده ويتطلع إلى الزخرف في يد صاحبه . وهبه لم يؤت من هذه الحظوظ الأدبية ما يعادل تلك الحظوظ المادية أو يزيد ، فهل حسب أن سعة الرزق عند الآخرين تضيق عليه هو رزقه ؟!. هل يخشى أن سعة الرزق عند الآخرين تنقص من ينابيع الثروة شيئاً فشيئاً ، فحرص أن يزاحمهم عليها قبل أن يستنفدوها ؟!.

يا هذا . إن خزائن الله لا تنفد ، وإن معين نعمته لا ينضب . فما بالك تزاحم الخلق على شربهم من هـذا الحوض الضيق المحدود ، وأمامك ذلك النهر العذب الذي لا ساحل له ولا حدود ؟! . هل نسيت مقالة الله ــ عز وجل ــ في الحديث القدسي : (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنْسَكم وجِنَّكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسأَل كلٌّ ما بلغته أُمنِيَّتُه فأَعطيته إياه، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن

أحدكم مرّ ببحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه . ذلك بأني جواد ماجد، أفعل ما أريد . وإنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » .

ألا ، من كان ملتمساً في رزقه الفضل ، فمن الله وحده إذاً فليلتمسه . ومن كان مطالباً فيه بالحق والعدل ، فليطلبه من نفسه ؛ من جده وجهده ، من كد يمينه وعرق جبينه . .

هكذا يقرر القرآن حق العمل . أعني حق كل عامل في ملك ثمرة عمله ونتاج كسبه ، يقرره القرآن الكريم حقاً طبيعياً بل لا يقرر حقاً طبيعياً سواه . حتى الميراث لا يقرره حقاً طبيعياً ، وإنما هو حق وضعي ومنحة إلهية وعطية من الله . نعم . قرر القرآن حق العمل . . هذه واحدة . . ثم يقرره حقاً عاماً ، يستوي فيه الذكر والأنثى . . هذه ثانية . . ولكنه مع ذلك يقرره حقاً جزئياً ؛ للفرد الكاسب منه نصيب وللأبوين نصيب . . فهذه ثالثة . . مبادئ ثلاثة سبق القرآن بها أحدث النظريات الاقتصادية ، وأعدل المبادئ الاشتراكية : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ »(١) .

---

(١) سورة النساء : ٣٢ .

هما إذاً خطان لا ثالث لهما .. طريق مسدود وطريقان مفتوحان .. لا تسأل الناس ، ولا تحسد الناس ، ولا تتمنى ما في أيدي الناس .. هذا هو الطريق المحظور . ولكن عليك بالعمل ، وفي الله الأمل . هذان الطريقان المفتوحان : « وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »[1] .

(١) سورة النساء : ٣٢ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

منابع الكسب

الحمد لله الذي أفاض على عباده النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وصلى الله على نبينا محمد الأمين ، قدوة العاملين ، ومحجة السالكين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعد :

كم ناشد القرآن واجد المال أن يبذله ..

وكم ناشد القرآن فاقد المال أن يسعى إليه ويحصله ..

غير أن لبذل المال أساليب شتى ، ولكسب المال طرائق متنوعة .. وليس كل بذل خليقاً بالحمد ، ولا كل سعي جديراً بالشكر ، فرب عطاء خير منه الحرمان ، ورب قاعد عن طلب المال خير من ساع إليه .. نعم . إن في البذل تطهيراً للنفس من رذيلة البخل ، وإن في الكسب ترفعاً بالكرامة عن ذل الحاجة ، ولكن شيئاً من ذلك لن يكون

طهراً وشرفاً حقاً ، إلا إذا كان طهور المادة شريف الأداة ، حتى لا يكون غسلاً للنجس بالنجس ، ومحواً للسيئة بسيئة مثلها ، أو بما هو أسوأ منها .

لا جـرم ، كان للكسب قوانينه وآدابه ، وكان للبذل قوانينه وآدابه .

فلنبدأ بالتوجيهات القرآنية ، في شأن اكتساب المال . . وهي توجيهات تتناول الكسب من جهات ثلاث : من جهة وسيلته ، ومن جهة غايته ، ومن جهـة أسلوبه وطريقته . ولنقصر حديثنا هذا على جانب الوسائل .

كلنا نعرف أن المرء إذا شغفه حب المال ، قد يندفع إلى التماسه من كل طريق ، اغتناما لكل ريح هبّت ، واقتناصاً لكل فرصة أقبلت . لا يستشير عقله في مقاييس النفع والضرّ ، ولا يستفتي قلبه في معايير الخير والشر ، بل يخبط في سعيه خبط عشواء ؛ فتراه يجمع من المال ما قلّ أو كثر ، دون أن يوازن بين الجهد الذي يبذله والربح الذي يحصله . وتراه يقتحم في سبيل ذلك من المخاطر ما خفي وظهـر ، لا يبالي ما يصيبه منها في يومه أو غده القريب والبعيد .

هذه الدفعة الطائشة الحمقاءُ ، قد تهدأ عن صاحبها قليلاً ، فتتركه يستعرض أبواب المكاسب ، ثم ينتقي منها وينتخب ، ويأخذ منها ويذر ، ولكنها توحي إليــه سراً قاعدة الاختيار .. إنها تدعــوه إلى أن يوازن بين وجوه الكسب ، أيها أكثر ريعاً وأوفر ربحاً ، وأيها أقل غرراً وأيقن نجاحاً ...

هكذا ، نزعة مبصرة هنا ، ودفعة عمياءُ هناك ... ولكنها في كلتا الحالين انبعاثة مادية خالصة ، لا أثر فيها للقيم المعنوية ولا للاعتبارات الإنسانية ... مادية غليظة القلب ، ساقطة الهمة ، منهومة البطن ، لا تتورع أن تستمد حياتها من فنون الحيل والمكر ، والجور والغدر ، والكذب والتزوير ، والملق والنفاق ، والرشوة والقمار ، وما شئت من ألوان الإثم والسحت ... إنها لا يعنيها شرف الوسيلة ، ولا طهارة اليد ، ولكن يعنيها ضمان الحصيلة ، ووفرة العد ...

ويجئ القرآن الحكيم ، فيصدر أمره بإغلاق هذه الأبواب الفاجرة كلها .. فلنستمع إليه حين ينهى عنها ، وحين يحذر وينفر منها . ولنستمع إليه حين يشدد النكير على

أصحابها ؛ أولئك الذين يأكلون التراث أكلاً لمًّا ، لا يبالون من أين جمعوه ؛ انتهاباً واغتصاباً ، أو غشاً وخداعاً ، أو امتصاصاً من دم اليتيم : « وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »[1] . « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ »[2] . « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً »[3] . « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[4] .

ثم يجمع القرآن هذه القوانين المفصلة ، فيردها إلى قانون كلي أعلى ، يضع فيه معيار العاطفة الرحيم ، وميزان الفطرة السليمة ، مكان تلك الموازين الجشعة الأثيمة . يقول لنا أن الشأن كل الشأن ليس في كثرة العدد ، ولكن في طبيعة المعدود . . . قليل طيب مبارك فيه ، خير من كثير

(١) سورة البقرة : ١٨٨ . (٢) سورة الروم : ٣٩ :
(٣) سورة النساء : ١٠ . (٤) سورة آل عمران : ٧٧ .

ممقوت لا بركة فيه : « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ »[1] .

أجل . هذا هو قانون القيم ودستورها الأعلى ... إنه لا يسري على الأموال وحدها ، ولكنه ينطبق كذلك على الأقوال والأعمال ، والأحكام والآراء ، ونظم الشورى والدفاع وسائر شؤون الجماعة والفرد ، في السلم وفي الحرب : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ »[2] . « فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[3] .

هكذا يجب أن نصحح نظرتنا إلى قيم الأشياء ؛ الجودة فوق الكثرة ، والنوع قبل العدد .

ولسنا ننكر مع ذلك أن العامل العددي إذا انضم إلى العامل النوعي كان ذلك خير الخير ، ولكنه إذا انحاز كل واحد منهما إلى جانب غير جانب صاحبه ، فإن الفوز في النهاية للقوة المعنوية ، على تلك الكثرة العددية ، التي

(١) سورة المائدة : ١٠٠ .
(٢) سورة البقرة : ٢٤٩ .
(٣) سورة الأنفال : ٦٦ .

تتجمع في رأي العين ، ولكنها غثاء كغثاء السيل ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . .

ألا فلنهتد بهدي هذا الدستور الأعلى ، في شأن مكاسبنا وثرواتنا . .

ألا فليعلم المكثرون أنهم هم المقلون ؛ المكثرون من السحت والحرام ، إن أكلوا منه نبت لحمهم طعمــة للنار وإن تصدقوا به لم يتقبل منهم ، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وإن تركوه لذريتهم كان مصيره المحق والدمار ولو بعد حين ، وإن دَعَوْا ربهم وفي أجوافهم أو على أجسادهم منه شيء فهيهات أن تجاب دعوتهم : (أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ ؛ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ : يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذٰلِكَ ؟) .

ألا وليعلم المقلُّون أنهم هم المكثرون ؛ المقلون تحرياً للحلال الطيب في مكاسبهم ، فإن أكلوا منه أكلوا هنيئاً مريئاً ، وإن أنفقوا منه تقبل منهم وضوعف لهم ، وإن

تركوه لذريتهم تولى الله حفظه لهم : « وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ »[1] .. وأخيراً ، إن دعوا ربهم كانوا أحرياء أن يستجاب لهم : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »[2] .

---

(١) سورة الكهف : ٨٢ .

(٢) سورة المائدة : ٢٧ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

أهــــداف الكسب

الحمد لله الذي لا غني لأحد عن فضله ورحمته ، وصلى الله على محمد رسوله وحجته ، وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأبرار .

أما بعد :

يا كاسب المال . هل تحريت في مصادر كسبك ؟! .

يا ساعياً في طلب الرزق . هل قدّرت لقدمك موضعها قبل سعيك ؟! .

لقد علمت أن الكسب الحلال هنيئة طعمته ، موفورة بركته ، مقبولة صدقته ، مصونة تركته ، مستجابة دعوة صاحبه . ولقد علمت أن الكسب الحرام خبيثة طعمته ممحوقة بركته ، منبوذة صدقته ، بائدة تركته ، مردودة دعــوة كاسبه .

فهل تخيّرت بين السبيلين ، فاخترت أقربهما إلى السرّاء والرّشاد ؟ .

هل وازنت بين منابع الثروة ، فآثرت طيّبها على خبيثها ، وقنعت بحلالها على حرامها ؟ . . وإن كنت فعلت ذلك ، فهل عملت بسائر الوصايا القرآنية في اكتساب الأموال ؟ .

كأني بك تقول : أما وصية الكسب الحلال من المنبع الحلال ، فقد سمعتها واتبعتها . . وأما ما وراء ذلك ، فماذا يطلب مني وراء ذلك ؟ ! .

هأنذا أجيبك : إنك بهذا التحري والاختيار إنما أديت ثلث واجبك ، وقد بقي عليك ثلثاه ؛ لقد طهّرت الأداة وأصلحت الوسيلة ، ولكن بقي أن تطهر الباعث وتصحح النيّة ، وأن تنظم الأسلوب وتهذب الخطة ، على الوجه الذي يرضاه الله .

نعم . إن أول ما يجب أن نفكر فيه ـ ونحن على عتبة باب الكسب الحلال ـ هو أن نسائل أنفسنا : ماذا نبغي من وراء هذا الكسب ؟ . . ذلك أن للكسب بواعث شتى ،

وأغراضاً متفاوتة ، تردي صاحبها وتوبقه . ونية تنجي صاحبها وتعتقه ، ونية تنجيه وترفعه إلى أعلى علّيين .. وهكذا ترى الناس – على حسب نيّاتهم – في درجات ثلاث : فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات .

أتريد مثلا من النية الفاجرة المردية ؟. ما عليك إلا أن تفتح عينيك لترى :

فهذه فئة من الناس ، إنما تطلب المال لتطغى به على العباد ، ولتنشر به في الأرض الفساد ... وهذه فئة أخرى تسعى إلى المـال ، لتغامر به وتقامر ، أو لتخالل وتخادن أو لتنفقه في ألوان المسكر والمخدّر .. وهذه فئة ثالثة تطلب المال ، لا لتبطش بيدها ، ولا لتفجر بجارحتها ، ولكنها آثمة القلب ، أسيرة للهوى الخفي تريد أن تباهي بثروتها وتفاخر ، وأن تنافس بها وتكاثر : « كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً »[1] .

هذه أمثلة من البواعث الملتوية ، لا نقتبسها من الفروض العقلية ، ولكن نستمدها من صحيفة الواقع ، ومن تقليب

---

(١) سورة الإسراء : ٣٨ .

النظر في سيرة جمهورنا الكادح .. ها هم أُولاء يكتسبون عيشهم بعرق الجبين ، بكدح الذهن أو كدّ اليمين . فإذا فتشت صدورهم لتعرف نوازعها إلى العمل ، وأهدافها من السعي والتنقيب ، لا تجد في أكثرها معنى إنسانياً ولا روحياً ؛ إنه ليس يهم الحدب على الأهل والولد ! ! ولا الرعاية لحق الله والوطن ! ! ولكنه النزول على حكم الشهوات الجامحة في صورة من هذه الصور أو أمثالها . ستجد أكثرهم يلتمسون الرزق من حله ، ولكن هدفهم هو إنفاقه في غير محله . إنهم يتخذون نعمة الله أداة لمعصية الله . إنهم يطلبون الثروة ليحولوها عن طريقها ، ويضعوها في يد غير مستحقيها .. ألا تدخل معي إلى بيت من بيوتهم لتنظر في وجوه أهليهم وأولادهم ؟ ! . وارحمتاه لهذه الأكباد الطاوية ، والأجساد العارية ؛ تتلفت طول يومها ، وتقضي جل ليلها ، تشوّقاً إلى كافلها وعائلها ، وهو عنهم في شغل بين قرناء السوء ، يغرق ماله في كؤوس الصهباء ، أو يحرقه ويذروه دخاناً في الهواء ، أو يدفنه في بالوعة الموائد الخضراء . يا حسرتا على الجهود الضائعة ، والقوى المنهوكة ، والثروة المبددة . على حين أن الشعوب من حولنا ، تزدهر ثروتها

ازدهاراً ، وتستعر قوتها استعاراً ، بل تكاد تنفجر انفجاراً .
فياليت شعري ، متى يفيق أبنـاءُ الشرق من سكرتهم
ويتنبهون إلى ما يراد بهم ؟ .. متى يصون كل منهم ثروته
وقوته ، ويأخذ للمجد أهبته وعدته ؟..

على أننا الآن ، لسنا بصدد البحث في تحديد مصارف
الأموال ، وتنظيم وجوه إنفاقها ، ولكننا نقول : إن هذا
اللون الطائش من السلوك ، وهذا الأسلوب المنحرف من
أساليب الحياة ، هو الذي يداعب نفوس الجماهير عندنا ،
وهو الذي يحرّك همتهم إلى السعي ، ويغريهم بالجد في
الكسب . إنهم يغبطون السفهاء المسرفين ، يتمنون أن يكون
لهم مثل ثروتهم ، ليسرفوا كإسرافهم . يقول كل منهم :
يا ليت لي مثل ما أوتي فلان !. إنه لذو حظ عظيم . أما
أني لو كنت مكانه ، لكنت أشد منه بطشاً بقوتي ، وأكثر
استمتاعاً بثروتي .. فهم من قبل أن ينفقوا ، بل من قبل
أن يكسبوا ما ينفقون ، محاسبون على هذه النية الفاجرة .
إنهم منذ الآن مأزورون غير مأجورين ، إن عليهم مثل
أوزار المسرفين العابثين . ومن كان في شـك من ذلك

فليقرأ كتاب الله : « تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[1]. فلم يهدّد العالين المسرفين وحدهم ، ولكنه توعد الذين يريدون العلوّ والفساد . فتلك هي النية المردية الموبقة ، وصاحبها ظالم لنفسه .

أما النية المنجية المعتقة ، فإنها على درجتين ؛ درجة مقتصدة تدرأ عن صاحبها الذم واللوم ، ولكنها لا تستوجب له مدحاً ولا ثواباً . . وحدُّ هذه المرتبة أن يكون همّ العامل من كسب الحلال ، هو أن ينفقه في الاستمتاع بالحلال لا يفكر فيما وراء ذلك . ودرجة عالية رفيعة تستوجب لصاحبها الثناء ، وتكفل له أحسن الجزاء ؛ ذلك أن يكون حظ نفسه تابعاً لحق الله عليه ، وأن يكون حق نفسه مغموراً في حقوق غيره : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا »[2]. أولئك هم السابقون السابقون . . ترى الواحد منهم يجد ويسعى امتثالاً لأمر الله وقياماً بالأعباء التي تفرضها عليه الحياة ، ليعف نفسه

(١) سورة القصص : ٨٣ .
(٢) سورة القصص : ٧٧ .

وأهله ــ أول كل شيء ــ عن الحرام ، وليغنبهم وإياه عن ذلّ السؤال ، ثم ليعود بفضله على العاجزين والمحرومين ، ثم ليزيد في ثروة أمته وقوتها ، وأخيراً ليزيد في ثروة الأرض وازدهارها كلها ، تحقيقاً لحكمة الله الذي استخلف الإنسان على الأرض واستعمره فيها . تلك هي النية الفاضلة الكاملة التي ترفع صاحبها إلى أعلى عليين : « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ »[1] . (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ) . والسلام على من اتبع الهدى .

اللهم ارزقنا الحلال وجنبنا الحرام . اللهم ارزقنا رزقاً يكفينا . وأدم نعمتك علينا إنك أنت الحليم الكريم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٨ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

آداب الكسب

نحمدك اللهم ، واهب الآداب العالية والأخلاق السامية لمن تحب من عبادك . وصلاتك على خير خلقك وعلى آله وأصحابه .

وبعد :

كنا في مفترق الطرق ، وكانت قد تشعبت علينا السبل في وجوه كسب المال ... فجاءت هداية القرآن تجنبنا سبل السحت الآثم ، وتقود خطانا في سبيل الرزق الحلال السائغ . وما أن وضعنا قدمنا على حافة هذا المنهل المورود وتطلعنا إلى ما فيه من رزق طيب ، حتى أخذت تناوشنا النوازع والدوافع المختلفة ، وتراودنا الأهداف والمقاصد المتنوعة .. وإذا الهداية القرآنية تبرز أمامنا مرة أخرى لتقود خطرات قلوبنا ، كما قادت من قبل خطوات أقدامنا .. صورت لنا القلوب على اختلاف نزعاتها ، وتنوّع أهدافها من الكسب

فإذا منها الآثم الذميم الذي تحركه شهوة الطغيان والعدوان أو نزعة العبث والإسراف ، أو حب التنافر والتكاثر . . وإذا منها الغافل الذي لا يعنيه إلا حظ نفسه من المتـاع المباح وإذا منها الراشد النبيل ، الذي يتطلع إلى أوسع الآفاق وأسمى الدرجات ، يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا . . .

هكذا قبل أن نسعى لطلب أرزاقنا ، عرفنا في أي طريق نضع أقدامنا ، ومتى وصلنا إلى حقل العمل ، وقبل أن نكدح فيه بأيدينا وأذهاننا ، عرفنا كيف نوجه قلوبنا ونيّاتنا . . وسيلة مشروعة وغاية مبرورة . أدبان أدبتنا بهما حكمة القرآن . . هل بقي وراءهما شيء من آداب الكسب ؟ .

نعم . فما تلك إلا وصية أول الطريق ، وإن طريق الكسب طويل متشعب قد يمتد بامتداد الأجل ، وقد يتعرج بتعاريج القوة والضعف واليأس والأمل ، ذلك أن للجهد فترات وله نزوات ، وإن للحظ إقبالاً وإدباراً ، وإن للقلب في كلتا الحالين تقلبات . . أفتتركنا هداية القرآن عند أول الطريق ، وتدعنا نهباً لما يصادفنا فيه من هذه العوامل

المختلفة ليعالجها كل امرىءٍ منا بوحي ساعته أو ميزان طبعه ومزاجه ؟ .. حاشى لله الرحيم : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ »[1] .

ألا فقد رسم القرآن الكريم لنا منهج السير الحكيم بإزاء هذه التطورات في جهودنا البدنية ، وبإزاء هذه التقلبات في حالاتنا النفسية .

أما جهودنا البدنية ، فإنه يحارب منها طرفي فترتها ونزوتها ، ويكافح فيها حدي رخاوتها وحدتها ..

هل رأيت أولئك المترفين الذين يشكون الكلال والملل من ساعات يسيرة يقضونها في العمل؟!. أولئك الذين يعملون قليلا ويلهون طويلاً ؟!. أولئك الذين إذا عملوا مسترخين متهاونين غير جادين ولا مجيدين ؟!. ولذا لم يجدوا مطلبهم في مكانهم ، لم يجدوا في أنفسهم همّة تبعثهم على النقلة إليه والرحلة في طلبه .. هؤلاء جميعاً يقبل عليهم جميعاً القرآن الكريم ، فيبعث فيهم راكد الهمة ، وينفخ فيهم روح السعي والإقدام ، ويوقظ فيهم باعث الإجادة والاتقان :

---

(١) سورة التوبة : ١١٥ .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »[1] . « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »[2] . « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ »[3] .

وهل رأيت في الطرف المقابل أولئك الكادحين المنهومين المتكالبين ، الذين استمرؤوا الدنيا والنفع والمادة فاستعبدتهم وأنفقوا فيها ليلهم ونهارهم ، ووهبوها همتهم وقوتهم ؟! . إرهاق لا يعرف منهم رفقاً ولا استجماماً ، وإلحاح لا يحفظ لهم وقاراً ولا كرامة ، وتبذل لا يبدو فيه أثر لنعمة الله عليهم ، واستغراق لا تأخذ فيه أسرتهم حظها من الإيناس والمودة ، ولا عقولهم حظها في الثقافة ، ولا نفوسهم حظها في المتعة البريئة ، ولا أرواحهم من الصلة بالمثل العليا . . . ألا تراهم ؟. قد يسمعون داعي الله إلى مناجاته وهم عنها لاهون ؛ اشتغالاً بشؤون الوارد والصادر ، وحساب الأرباح والخسائر ، كأن هذه اللحظات المعدودة التي يؤدون فيها حق ربهم ، هي التي ستقلب الغنم غرماً ، وتحول الربح خسراً

(١) سورة التوبة : ١٠٥ .
(٢) سورة الملك : ١٥ .
(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

وما دروا أن الحقيقة عكسية ، وأن التقوى مفتاح خفي من مفاتيح الرزق وأن الله لا يبارك عملاً مباحاً إذا كان يلهي صاحبه عن واجبه ، ألا إن هذا مثل من الإسراف ؛ الذي يعود به طلب المباح اشتغالاً بالحرام !!. ألا إن هذا نموذج من العدوان ، الذي قال الله في شأنه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »[1] . نعم . إن على رأس هؤلاء المعتدين أولئك الذين يتوجه إليهم القرآن بندائه القوي وإنذاره الشديد : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »[2] . أما المؤمنون الصادقون فإنهم كما وصفهم الله : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ »[3].

هكذا وضع القرآن لنا أسلوب السعي والعمل ؛ لا متوانياً متراخياً ولا مجهوداً مكدوداً ، ولكن أسلوب الجد القاصد

(١) سورة المائدة : ٨٧ .

(٢) سورة المنافقون : ٩ .

(٣) سورة النور : ٣٧ .

الراشد . فلنستمع إلى قول صاحب الرسالة ـ صلوات الله عليه ـ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ) .

هذا التوجيه الحكيم في تنظيم جهودنا البدنية ، يكمله توجيه أعمق منه في تنظيم حالاتنا النفسية ، وموعدنا به حديث آخر إن شاء الله تعالى . . جمعنا الله على الهدى ونوّرنا بهدي المصطفي ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

اختيار الكسب الصالح

نحمدك اللهم . لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . والصلاة والسلام على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين وبعد :

ما أعظم النعمة علينا بهذا القرآن ، قائد ما أحكم قيادته ، وهاد ما أكمل هدايته ، وصدق الله تعالى القائل : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »(١) .

تلك القيادة المثلى لا تخص طائفة من الناس دون طائفة ، ولا شأناً من الحياة دون شأن ، ولكنها هداية سابقة شاملة . وأن المؤمن يشعر بها وهي تلاحقه في كل خطوة وتضيء له الطريق حيثما توجه ؛ حين يقدر ويفكر ، وحين

(١) سورة الإسراء : ٩ .

يهم ويعزم ، وحين يقضي ويحكم ، وحين يكدح ويعمل ، وحين يفرح أو يحزن ، وحين يخاف أو يأمن . . وصدق الله تعالى إذ يقول : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ »[1] . لكل شيء ؛ لأدب الدين والدنيا ، ولخير الآخرة والأولى .

قبل أن يتوجه المرءُ لالتماس رزقه ينادي القرآن : « لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ »[2] . ويناشده نبي القرآن : (لَا يَحْمِلَنَّكَ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَىٰ طَلَبِهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ) . وكانت تلك هي الوصية الأولى من وصايا الكسب ؛ طهارة اليد من السحت .

فإذا وضع المرءُ قدمه في طريق الكسب الحلال الطيب وقبل أن يمضي فيه ، وجد القرآن يحدد له الأهداف الصحيحة من كسب المال : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا »[3] ، « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً »[4] . وكانت

(١) سورة النحل : ٨٩ .
(٢) سورة المائدة : ١٠٠ .
(٣) سورة القصص : ٧٧ .
(٤) سورة القصص : ٨٣ .

هذه هي الوصية الثانية ؛ طهارة القلب والنيّة ، متنزهاً عن نزعات الفجور والأنانية .

فإذا ما وصل العامل إلى حقل العمل ، طاهر اليد نقي الصدر ، لم يتركه القرآن وشأنه هنالك ، بل سار إلى جانبه يتابع حركاته وسكناته ، ويراقب فتراته ونزواته ؛ فيشحذ من عزمه إذا وهى أو وهن ، ويشد من أزره إذا ونى أو سكن : اعمل فسيرى الله عملك . اتق وأحسن . إن الله يحب المحسنين . كما يلطف من شدته . ويحد من حدته ، إذا انهمك في السعي وأفرط ، وطغى في جمع المال أو بغى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ »[1] . « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »[2] .

هكذا بعد أن طهر القرآن في أول الطريق أيدي العاملين وقلوبهم ، سدد خطاهم في أثناء الطريق ونظم جهودهم . .

وبعد : فإن هداية القرآن للعاملين ، وقيادته لخطاهم على طول الطـريق لن تقف عند تنظيم جهودهم البدنية ولكنها ستنفذ إلى ما هو أدق وأعمق ... إنها تتقصى

---

(١) سورة المنافقون : ٩ .　　　(٢) سورة البقرة : ١٩٥ .

حركات نفوسهم ، وتستمع إلى خفقات قلوبهم وخلجات صدورهم ، متتبعة أطوار العمل لديهم وتقلبات الأحداث عليهم ، فتصف لكل شكوى علاجها ولكل نجوى جوابها .

كل عامل في هذه الحياة هدف لتقلبات النجاح والإخفاق ، والربح والخسارة ، والنصر والهزيمة « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[1] . « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[2] . وقد فطر الإنسان ذا مشاعر وأحاسيس تصب في نفسه إما برد الرضى والسرور لما يناله من خير ، وإما حرقة الحزن والألم لما يصيبه من أذى وحرمان .

أتدري ما مصير هذه المعاني ، إذا تركت وشأنها تعمل في النفس عملها ؟ .

إليك صورة طبيعية لنفسية المخفق المهزوم ، إذا لم تهد قلبه هداية القرآن ، ولم تثبته سكينة الإيمان . . إنه لو نظر في حاضره ، لم يجد إلا ضجراً وألماً لما يعانيه من نكد الإخفاق ولو تلفت إلى ماضيه ، لم يحس إلا حسرة وندماً على ما فاته من أخذ العدة لتجنب هذا الإخفاق ، ولو تطلع إلى مستقبله

(١) سورة الأنبياء : ٣٥ . (٢) سورة آل عمران : ١٤٠ .

لم ير فيه شعاعاً من الخير أوالنور ، وإنما هو ظلام قاتم وشؤم جاثم . . . وهكذا يجد مسالك الحياة قد سدت من بين يديه ومن خلفه ، لا مخرج فيها ولا متنفس . . . أليس ذلك هو اليأس القاتل ؟.

وانظر الآن إلى نفسية الفائز المنتصر :

إن موجة الفرحة بهذا النجاح الحاضر لتغمر حياته من شاطئها ؛ إن نظر إلى أمسه نظر إليه معجباً فخوراً . يقول : ربِّ أكرمني إذا كنت أهلاً لهذا الإكرام ، فقد أخذت للنجاح عدتي ، وما أُوتيته من علمي وعملي . . . وإن نظر إلى غده نظر إليه بملءِ الثقة والاطمئنان . يقول : لن تبيد هذه النعمة أبداً ، وقد ذهبت السيئات عني إلى غير معاد . . أليس هذا هو الأمل الكاذب والغرور الفاتن ؟ . .

هاتان صورتان نفسيتان ، تتعاقبان على قلب كل عامل وهما على قلب طالب المال أكثر تعاقباً وأشد تغلباً ، ما لم يكن له من إيمانه عاصم .

فلنستمع إلى القرآن الكريم وهو يعالج هاتين الظاهرتين . لنستمع إليه حين يتوجه إلى المخفقين المحرومين ، وقد برموا

بحاضرهم وندموا على ماضيهم ، ويئسوا من مستقبلهم .
ها هو ذا يمسح على صدورهم بكف الرحمة ؛ فيبدل حرارة الهم برداً وسلاماً ، ومرارة ندمهم رضى ويقيناً : « اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1] . « لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا »[2] . وقالوا : لو كان .. لكان . إن هذه الحسرات لن تردّ ما فات : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا »[3] .. ثم ها هو ذا يفتح أعينهم على نور الأمل: « وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ »[4] . « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً »[5] .

أما أولئك الذين تأخذهم نشوة الربح والنصر ، حتى يأمنوا صروف الدهر ، وحتى ينسوا ما مضى لهم من عسر الإخفاق والحرمان ، فإن القرآن الحكيم لا يبرح يكشف الغطاء عن أعينهم ، ليذكرهم بماضيهم القريب ، وليحذرهم من مستقبلهم المطوي في حجب الغيب : « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »[6] . أم فرحوا بما أوتوا

---

(١) سورة البقرة : ١٥٣ .
(٢) سورة آل عمران : ١٥٦ .
(٣) سورة الحديد : ٢٢ .
(٤) سورة يوسف : ٨٧ .
(٥) سورة الشرح : ٥ ، ٦ .
(٦) سورة الأعراف : ٩٩ .

من ، العلم واعتمدوا على ما بذلوا من الجهد ، فنسبوا الفضل لأنفسهم وأنكروا يد الله عليهم ؟!. يا سبحان الله ما أسرع ما ينسى الناس .. « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ »[1] . كلَّا أيها الناس. إنه ليس بالجد وحده ينال المجد. ورحم الله القائل :

إذا لم يكن عـون من الله للفـتى
فأول ما يجـني عليه اجتهاده

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ »[2] .

هكذا يدفع الله عن النفوس المؤمنة محنة اليأس القاتل وفتنة الغرور الكاذب ، ويبدلهم منهما أملاً قاصداً لا يبطره الظفر ولا يفسده الإخفاق ... وهكذا تكمل شرعة الهداية القرآنية للعاملين ... طهارة في اليد ونزاهة في القصد ، وعزيمة صادقة قاصرة في بذل الجهد ، ثم أمل صادق فيما يجيء به الغد ... آداب أربعة يوصي بها الله كل كاسب وكل عامل ... فهل نتبع وصية الله ؟.

(١) سورة الزمر : ٨ .
(٢) سورة النحل : ٥٣ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

نظـــام البــذل والانفــاق

الحمد لله الرقيب على عبــاده . والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحابته إلى يوم الدين .

وبعد :

كما أوصانا القــرآن بالسعي في طلب الرزق ونيله أوصانا أن نقوم بإنفاقه وبذله ... بل أحسب أن وصيته لنا بأولاهما ، ما كانت إلا تمهيداً لوصيته لنا بأخراهما ؛ أوصانا أن نحصل لكي نستطيع أن نبذل ، فإن فاقد الشيء لا يعطيه .

وكما أن القرآن شرع للكسب قوانينه وآدابه ، كذلك شرع للبذل قوانينه وآدابه ..

غير أننا قبل أن نأخذ في عرض هذه القوانين والآداب نحب أن نشير إلى كنه فضيلة البذل ، التي يدعو إليها

القرآن الحكيم . إنها تتمثل في حركتين ، أو في حركة ذات اتجاهين ؛ حركة واردة ، هابطة إلى المركز . وحركة صادرة ، صاعدة إلى المحيط . حركة تعود بالمال إلى رب المـال ، متجهة به وجهة الاتعاب والاستمتاع الشخصي وحركة تتجه بالمال إلى غير رب المال ، لتبذله في وجوه البر للآخرين .. هذه الحركة الثانية تبدأ في دائرة محدودة ضيقة ، ثم لا يزال يمتد قطرها وينفرج محيطها ، حتى تصبح أوسع الدوائر وأشملها . تبدأ بالأسرة الخاصة الصغرى ، حيث أضيق المسؤوليات وألـزم التبعات ، ثم تمتد أغصانها بامتداد القرابة والنسب ، وتتشعب أطرافها بتشعب الصحبة والجوار واشتباك المصالح . واتساع العلوم وانتشار الأخبار .. حتى تصـل إلى محيط الأسرة العامة الكبرى ، أسرة الإنسانية العالمية ، بعد أسرة الدين والوطن .

هي إذاً حقـوق ثلاثة في أموالنا ، تتقاضانا أداءها والقيام بها : حق النفس ، وحق الأسرة ، وحق الجماعة .

فانظر إلى هذه الحقوق الثلاثة في مرآة القرآن الحكيم لنعرف مبلغ عنايته ومدى اهتمامه بكل واحدة منها .

أتدري ماذا سوف نرى ؟. سوف نرى عجباً ، بل أعجب العجب. سوف نرى هذه الحقوق الثلاثة لا تأخذ من عناية القرآن نصيباً متساوياً ، بل يتفاوت حظها من هذه العناية تفاوتاً كبيراً ، وأن الذي يظفر من بينها بنصيب الأسد إنما هو حق الجماعة العامة ، بينما حق الأسرة يتبوأ منها مكاناً وسطاً. أما حق النفس ، فإنه لا يحل منها إلا في أدنى المنازل .. أليس يأخذك ها هنا العجب ؟!. أليس حق النفس أوجب ؟!. يليه حق الأسرة ؟!. الأقرب فالأقرب ؟!. بلى. ولكن هذا هو وضع المسألة في القرآن الكريم ، على رغم أنف النفعية ؛ الأنانية منها والعصبية. بل على رغم القواعد الفقهية وظواهر الأدلة الشرعية .. أي والله ، إن هذا هو وضع المسألة في القرآن الكريم ، عرف الحكمة فيه من عرفها ، أو جهلها من جهلها.

ألا تستمع إلى كتاب الله ، حين يتحدث عن حق الانتفاع بالمال ، في حظوظ النفس المشروعة ؟. إنه قلما يتحدث عن حق الاستمتاع بهذه الحظوظ ، وإنه ليتحدث عن هذا الحق - إذا تحدث - حديثاً هيناً ليّناً ، لا حض فيه ولا تحريض ولا إيجاب ولا إلزام ، وإنما هو الإذن والرخصة في تناول

هذه الحظوظ ، ورفع الحرج والإثم عن متناولها .. أما حين يتحدث عن حقوق الأسرة ، فإننا نسمع منه نغمة جديدة يصبها في قالب الأمر الموجب الملزم . ولكنها آيات معدودات لو جمعت كلها لكادت تسعها صفحة واحدة من كتاب الله . وأما حق الجماعة في أموالنا ، فحدث عن البحر ولا حرج . إن الحديث عنه يواجهنا في كل مكان من القرآن الكريم في لهجة تشتد وتعلو ، وتوجب وتحتم ، وتعد وتتوعد ، وتكرر وتؤكد . . .

يا سبحان الله ! ألم يكن حق النفس أولى بهذا التأكيد والتشديد ؟ ! . أو لم يكن حق الأسرة أولى بأن يليه في الحض والتحريض ؟ ! . وحق الجماعة البعيدة أولى أن يكون آخرها رتبة وأبعدها منزلة ؟ ! .

أيها السائل . إنك تأخذ بظاهر العلم ، وتبني على بادي الرأي . . . ولو اتبع القرآن هداك ، لكان كتاب تعليم وكفى . ولكن القرآن ليس خطاباً للعقول وحدها ، إنه للنفوس تربية وتهذيب ، وللقلوب علاج وتطبيب .. فهل للطبيب أن يصف الدواء بغير داء ؟ ! .

والآن فلنكشف لك جانباً من السر في هذا الوضع القرآني الحكيم :

تقول أن حق النفس أوجب ، وحق الأُسرة إليه أقرب ... لقد صدقت ، لكن باعث الطبيعة إليهما يسبق داعي الشريعة ، وأن الطبيعة لأشد حرصاً على حق النفس منها على حق الأسرة ، وإنها على حق الأسرة لأقوى حملاً منها على حق الجماعة ... فأي حاجة بنا إذاً إلى الإلحاح على كل امرىء في أن يأكل ويشرب ، وأن ينتفع بماله في سد حاجاته ؟. أليس داعي الجبلّة والغريزة قائماً في كيان نفسه ، يدفعه إلى ذلك دفعاً ؟. إن مهمة التشريع الحكيم ها هنا ينبغي أن تنحصر في التنبيه على صدق هذا الداعي الجبلّي وسداده ، على أن تدعه بعد ذلك يعمل هو في النفس عمله . . فإذا انحرفت الفطرة بفعل البيئة أو الوراثة وجعلت تتحرّج وتتأثم مما لا حرج فيه ولا إثم ، فهنالك يجيء دور الشريعة في تصحيح الأوضاع المنحرفة ، ورفع النظر الذي وضعته العادات السيئة ، والعقائد الباطلة ،وهكذا نرى موقف القرآن الكريم : « لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ

اللهُ لَكُمْ »[1] . « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »[2] .. وكذلك لما كانت لحمة الرحم تجعل من أعضاء الأسرة كائناً واحداً ، يشعر بشعور واحد حتى كأن حياة أحدهم امتداد لحياة صاحبه ، وكأن حاجة الآخر هي حاجة نفسه ، لم يكن بالشريعة حاجة إلى أكثر من تغذية هذا الشعور وتنميته ما دام قائماً ، فإذا اضمحل هذا الشعور بتراخي حبال الرابطة الزوجية ، وتفكك عرا الأسرة ، فهنالك يبرز سلطان القانون ، ويرفع صولجانه . وهكذا نرى الدعوة القرآنية إلى القيام بحقوق الأسرة لا تأخذ طابع الشدة والصرامة ، إلا حيث يبدأ التفسّخ والتفكك في هذه الرابطة بالشقاق وبالفراق : « أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »[3] . « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ »[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٨٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٣٢ .

(٣) سورة الطلاق : ٦ .

(٤) سورة الطلاق : ٧ .

فإذا جاوزنا حقوق النفس وحقوق الأسرة ، وانتقلنا إلى ذلك الميدان الفسيح ، بل ذلك العقد المنفرط ، إلى محيط الجماعة الكبرى ، الذي لا يسمع فيه صوت لغريزة البقاء الفردي ، ولا صوت لغريزة البقاءِ النوعي ، وإنما تسمع فيه أصوات خافتة للبواعث النبيلة ـ دينية كانت أو إنسانية ـ فهنالك تشتد الحاجة إلى صوت قوي علوي ، متجدد متكرر يوقظ هذه المعاني النبيلة من هجوعها ... من أجل ذلك لا نزال نسمع صوت الدعوة القرآنية ، إلى البذل والإنفاق في سبيل الله . يلاقينا حيثما توجهنا في مثاني الآيات وتضاعيف السور ... ثم نرى هذه الدعوة الرشيدة ، لا تكتفي بأن تجعل هذا البذل ركناً من أركان الإيمان ، ولا تكتفي بأن تجعل به للجماعة في أموال المؤمنين حقين اثنين : حقاً معلوم الحدود والمقادير ، وحقاً آخر غير معلوم الحدود ، تحدده الضرورات النازلة ، والحاجات المؤقتة ، لإعانة العاجزين وإغاثة الملهوفين ... نقول : إن القرآن الحكيم لم يكتف بأن وضع هكذا قانون البذل مفصّلاً ، ولكنه أحاطه بسنن سنّها ، وآداب شرعها ، نفصلها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

اللهم نسألك الهدى والتقي ، والعفاف والغنى وسير الصالحين حتى نلقاك وأنت راض عنا يا إله العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

آداب البذل « اختيار مادة العطية »

الحمد لله الكريم الجواد ، المتفضل على العباد . والصلاة والسلام على أفضل ناطق بالضاد ، وعلى آله وأصحابه الأمجاد .

وبعد :

إذا فتح الحديث عن آداب البذل ، فقد طوي الحديث عن فريضة البذل نفسها ، ولم يبق المجال مجال الدعوة إلى البذل والتحريض عليه ، ولكن مجال التمييز بين أنواع البذل واختيار أحسنها . . .

لن يكون حديثنا اليوم ، موجهاً إلى الأشحاء الكانزين الذين انحرفت فيهم غريزة حب التملك ، فأصبح المال عندهم غاية لا وسيلة ، بل أصبح فيهم مبدأ يخدم ولا يستخدم . . . أولئك الذين يضنون بالمال على أنفسهم

فلا يبدو عليهم - في مطعمهم وملبسهم ، أو في مسكنهم ومركبهم - مظهر لهذه النعمة التي يحب الله أن يرى أثرها عليهم . وإنما كل السعادة في نظرهم أن يجمعوا المال جمعاً ويعدوه عداً ، كأن زيادته ستمد في آجالهم مدًّا . . .

كلا . ولن يكون حديثنا اليوم ، سوقاً إلى السفهاء المسرفين ، الذين انحرفت فيهم نزعة الإنفاق ، فجعلت أموالهم وقفاً على أنفسهم ، ينفقونها مع قرناء السوء في متعهم الشخصية ، تاركين أزواجهم وأولادهم وراء ظهورهم يقاسون نكد العيش ويكابدون ذل الحاجة ، كأنهم عن هذه الرعية غير مسؤولين . . .

كلا . ولن يكون حديثنا اليوم ، مع المترفين أولي النعمة الذين يغمرون بالرفاهية أسرهم ، ولكنهم لا تمتد أبصارهم إلى أبعد من جدران بيوتهم . . . أولئك الذين يأكلون من غير جوع ، ويشربون على غير ظمإ ، ثم يرفلون هم وأهلوهم في الحرير ، ولا يمشون إلا على الفراش الوثير ، ومن حولهم بطون طاوية لا تجد طعاماً ولا شراباً ، وأجساد عارية لا تملك كساءً ولا غطاءً ؛ فلا تهتز منهم عاطفة لمنظر هذا

البؤس والحرمان ، ولا تنبسط لهم كف بشيء يسد جوعة الجائع ، أو يواري سوأة العريان . . .

كل أولئك سنضرب عنهم الذكر صفحاً ، وسنوجه حديثنا إلى المنفقين ، الذين طهرت نفوسهم من داء الشح في مراتبه الثلاث : الشح على النفس ، والشح على الأسـرة والشح على الجماعة . . . نوجه حديثنا إلى الباذلين لنقول لهم – إنهم وقد طهروا من عيب البخل – عليهم أن يتطهروا من عيوب البذل ، فإن للبذل عيوباً . وأن يتأدبوا بأدب الإسلام فيه ، فإن للبذل في الإسلام آداباً ، فرب بذل هو شر من البخل ، ورب عطاء خير منه الحرمان ، كما صرح به القرآن . . .

نعم . إن على الباذل – حين يبذل – أن ينظر في صفة ما يبذل ، وفي قدر ما يبذل . وأن يعرف فيم يبذل ، وكيف يبذل ، ولم يبذل ؟. ثم عليه – في كل واحدة من هذه النظرات – أن يسترشد بهدي القرآن الكريم وتوجيهه الحكيم .

فلنبدأ بالتوجيهات القرآنية في انتقاء مادة البر والعطاء .

كثير من الناس إذا انتخبوا عطاياهم – وبخاصة تلك

العطايا التي تجمع بطريقة شعبية ، لا يلتقي فيها المعطي والآخذ ولا تعرف فيها شخصية المعطي ولا الآخذ - يختارونها من حثالة مالهم ، وسقط متاعهم ؛ يخرجون من الثياب خشنها وغليظها وباليها ومرقعها ، ومن النعال مخصوفها وممزقها . ومن الطعام ما بدا خبثه وغلثه ، وسوسه وعفنه ، مستبقين لأنفسهم أجود المال وأطيبه . يجعلون لله ما يكرهون ولأنفسهم ما يشتهون .

تلك نفسية لا تزال فيها بقية من شيمة البخل ، تقصر بصاحبها عن رتبة البر ، كما وصفه الله تعالى ؛ أن نؤتي المال على حبه ، ونطعم الطعام على حبه . ألا نستمع إلى القرآن الكريم ، حين يقول بصيغة الحصر : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »[1] .

والآن ، فلننظر في مرآة القرآن ، إلى تلك النفسية التي تسيء اختيار مادة البر والإحسان ؛ إنها في حكم القرآن نفسية تستمد وحيها من نظرتين خاطئتين : نظرة استهانة بشأن الآخذ ، ونظرة استئثار ومحاباة لشخصية المعطي

---

(١) سورة آل عمران : ٩٢ .

نفسه ... فالذي يمنّ بالرديء ويضن بالجيد ، ينظر إلى الفقراء والمعوزين ، فيتراؤون له ـ من خلال خياله ـ كأنهم قطيع من الحيوان ، حفاة عراة جياع ، يسد جوعهم أدنى طعام ، ويستر عورتهم أحقر كساءٍ . بل إنهم لا يطمعون في أكثر من لقمة وسترة .. أليس شيء خير من لا شيء ؟ ! .

هكذا ينظر إلى الناس من عليائه ؛ نظرة استهانة وبطر ثم ينظر إلى نفسه ؛ نظرة حرص وحذر . يقول في نفسه : كيف أوتي الفقير جيد طعامي ولباسي ، لأصبح بحاجة إلى بدلهما ؟ . أأغنيه وأفقر نفسي ؟ ! .

هذه النظرات الخاطئة ، بل هـذه العقليات المريضة يصفها القرآن أدق وصف ثم يطب لها ، ويعمل على استئصالها .

أما نظرة الحـذر والخوف من الفقر ، فإن القرآن يصورها بأنها نزغة شيطان ، ثم يمحوها من نفس المؤمن بذلك الوعد الكريم ؛ إن الله سيرزق المنفق خلفاً :

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً . وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »[1] .

وأما تلك النظرة المستكبرة المستقلة ، فإن القرآن يبدلها نظرة مؤاخية ، مواسية مساوية : يا صانع المعروف . لا توازن مواضيع صنيعك بأنفسهم ، ولكن وازنهم بنفسك . إنهم إخوتك ، منزلتهم منزلتك . قدِّر في نفسك أن الذي تمنحه لهم ، قُدِّم منحة لك . أكنت ترضى أن تأخذ الرديء الدنيء ؟. ألست إن أخذته على استحياء لا تأخذه إلا مغمضاً عينيك على القذى والأذى ؟! : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ »[2] .

يا صانع المعروف . افتح عينيك ، وامح الغشاوة عن ناظريك . أتظن حين تضع صدقتك في يد الفقير ، أنك تضعها في يد الفقير نفسه ؟. كلا ، إنها تقع في كف الرحمن . إنك تقرض الله بها قرضاً حسناً . أفلا تستحي

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٨ .　　(٢) سورة البقرة : ٢٦٧ .

أن تقرض الله أردأ ما أعطاك ، وتضن عليه بأجود ما أولاك ؟ .

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »[1] .

اللهم خلّقنا بالقرآن العظيم ، واجعلنا من المنفقين المخلصين ، عوناً لعبادك حرباً على أعدائك . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة التوبة : ١٠٤ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

الحق المعلوم والحق غير المعلوم

الحمد لله ، يخلف على عباده المنفقين في الدنيا بالمال ، وفي الآخرة بصالح الجزاء . والصلاة والسلام على الرسول الكريم ، وعلى آله وأصحابه وبعد :

نحن أمامَ قوم مؤمنين ، سمعوا داعي الله يدعوهم إلى الإنفاق ، فقالوا : لبيك ، لبيك . ثم سمعوه يأمرهم أن يُخرجوا صدقاتهم من طيب المال وجيده ؛ من أوسط طعام أهليهم وكسوتهم . . . فقالوا : سمعاً وطاعة .

ولكنهم الآن يتساءلون عن مقدار العطاء وجملته : هل للقرآن في ذلك توجيهات معينة ، كما كان له توجيه معين في اختيار صنف العطاء والتزام جودته ؟ .

والجواب : أن نعم .

وإن أول هذه التوجيهات القرآنية في مقدار العطاء ؛ أن القرآن في دعوته إلى البذل ، لم يحرض الناس يوماً ما

على إنفاق المال كله ، ولم يدع الغني تأخذه الرأفة على الفقير إلى حد نسيان نفسه . . . ولو فعل ؛ لكان ذلك تحويلاً للثروة من يد إلى يد ، ونقلاً للبؤس من جانب إلى جانب . ولم يكن ذلك هو الإرشاد الحكيم إلى حسن توزيع الثروة بين الأُمّة ، والتقريب المعقول بين طبقاتها ... وكيف يشجع الإسلام على الفقر ، وهو يريد أن يمحو الفقر ؟! . أم كيف يقود الأغنياء إلى ذل السؤال ، وهو يريد أن تكتب العزة لجميع المؤمنين؟ !. أم كيف يمهد لأحد سبيل الغني ؟ !. وهو الذي يدعو إلى الحياة الطيبة : « وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(١) « وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ »(٢) .

جاء رجل ببيضة من ذهب ، أصابها في بعض المعارك فقال : يا رسول الله . هذه صدقة . والله لقد أصبحت ما أملك غيرها . فأعرض عنه النبي الرحيم . فجاءه من جانبه الأيمن ، فأعرض عنه . ثم جاءه من جانبه الأيسر وهو في كل ذلك يكرر عليه مقاله . فأخذها النبي منه مغضباً ، ثم حدفها حدفة ، لو أصابته لشجته أو لعقرته

---

(١) سورة النساء : ٢٩ . (٢) سورة البقرة : ١٩٥ .

ثم قال ـ صلوات الله عليه : (يَأْتِي أَحَدُكُمْ بِمَالِهِ كُلِّهِ يَتَصَدَّقُ بِهِ ، ثُمَّ يَجْلِسُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ! إِنَّمَا الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنىً) . وهكذا ترى كل دعوة في القرآن إلى الإنفاق ، إنما هي دعوة جزئية : « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ »(١) . « أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ »(٢) . « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ »(٣) .

غير أن كلمة الإنفاق من المال ، كلمة غير محدودة المعالم ، إنها تتناول القليل ، بل أقل القليل . فهل كل عطاءٍ ولو قل ، يحقق واجب البر؟. ويخلي الباذل من تبعة البخل ؟ .

كلا . ألا نستمع إلى قول الله تعالى في محكم كتابه : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَى »(٤) .

ها هنا إذاً طرفان ممنوعان ؛ لا قلة شحيحة تقصر عن المدى ، ولا كثرة سفيهة تقلب الأوضاع ، وتسيءُ إلى ميزان التوزيع . . . ولكن وسط بين ذلك . . .

---

(١) سورة يس : ٤٧ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦٧ .
(٣) سورة الطلاق : ٧ .
(٤) سورة النجم : ٣٣ ، ٣٤ .

ما هذا القدر الوسط ، الذي يحبه الله ويرضاه ؟. هلا وضع الإسلام في ذلك حداً يخرج الناس من حيرتهم وينقذهم من خداع أهوائهم وسوء تقديرهم ؟ .

ها هنا يتجلى نور الهدي النبوي ، ليبين للناس ما نزل إليهم ... ها هو ذا يضع مقياسين اثنين للحد الأدنى من الصدقات ؛ مقياساً في ثروة المتصدقين ، ومقياساً في حاجة المعوزين . مقياسان كل واحد منهما قائم بنفسه ، مستقل تمام الاستقلال عن صاحبه .

فأما المقياس الأول ، فإنه يخص المقتدرين ، ولو امتداداً نسبياً متواضعاً . إنه يعني كل من بلغ ماله نصاباً معيناً في وقت معين ... تلك هي فريضة العشر أو نصف العشر ؛ في الزروع والثمار عند كل حصاد . وفريضة ربع العشر من الذهب والفضة في كل عام ، إلى مقادير معينة من الماشية في كل حول ... ذلك هو الحق المعلوم الذي أشار إليــه القرآن الكريم ، وحدده الهدي النبوي الحكيم ... نسب لا تختلف باختلاف الحاجات شدة ولا ضعفاً ، ولكنها تؤدى على كل

حال ، إلى الدولة نفسها تتولى صرفها في الوجوه ـ الخاصة أو العامة ـ التي حددها القرآن .

وأما المقياس الثاني ، فإنه لا يحد بنصاب ولا زمان ولا بنسبة ولا مقدار . إنه يدور على محور الضرورات النازلة ، والحاجات المتجددة ، ويقدر بقدر كل واحدة .

أمام هذه النوازل ، ليس لأحد أن يقول : لقد أديت ما عليّ من الزكاة المفروضة ، فلتؤد الدولة ما عليها !. إن الدولة مهما تتسع مواردها ومهما تتفتح عيونها ، لا تقف على كل حادثة ، ولا تسمع كل استغاثة . أفنترك الجائع الذي لا يجد ما يسد رمقه ؟!. والعاري الذي ليس عنده ما يستر بشرته ؟. والضائع الذي لا مأوى له ؟!. والجريح ينزف دمه ؟. والمريض يمتد مرضه ، حتى تفطن لهم الدولة وتؤدي واجبها نحوهم ؟!.

لقد عرف الإسلام لهؤلاء جميعاً حقهم ، فجعل معونتهم فريضة ثانية في عنق من اطلع على حاجاتهم . . . فإن أعرض عنهم فهو آثم ، وإن أعطى دون ما يكفيهم فهو آثم ، إلا

أن يعجز عن الكفاية ، فعليه حينئذ أن يستعين بغيره لإحياء هذه النفوس البائسة وإسعافها وإنقاذها : « وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً »[١] .

من هذين الواجبين ؛ واجب الزكاة المفروضة ، وواجب الإغاثة عند الطوارئ ، يتألف الحد الأدنى لفريضة البر في الإسلام . فمن أداهما جميعاً فقد برئ من إثم الشح ، وتطهر من رجسه ، ولو بقيت له الألوف المؤلفة والقناطير المقنطرة .

فقولنا هذا ، هو الحد الأدني ، ولكن فوقه درجات متصاعدة ، رسمها الإسلام وندب إليها القرآن .

أدناها : ألا يمسك المرء إلا حد كفايته ، وقدر حاجته هو ومن يعوله ، ثم يعمد إلى ما زاد عن هذه الكفاية فينفقها في التوسعة على الآخرين . . . إلى هذه الدرجة السنية ، يشير الكتاب الكريم : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ »[٢] . أي : ما فضل عن حاجتهم .

المرتبة الثانية : وهي الدرجة الوسطى : ألا يستأثر على الناس بشيء من ماله ، بل يعد نفسه شريكاً لهم كواحد

(١) سورة المائدة : ٣٢ . (٢) سورة البقرة : ٢١٩ .

منهم ، لهم في ماله مثل ما له فيه ، ولاسيما في أيام المسغبة وإلى ذلك الإشـارة بقوله ـ عظمت رحمته : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[1] . « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[2] .

المرتبة الثالثة : وهي أعلاها ؛ أن يؤثر أخاه على نفسه من دون أن يلقي بيده إلى التهلكة . تلك هي الدرجة العليا تسمو إليها الأرواح الزكية القدسية : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »[3] . « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[4] .

فلينظر المؤمن أين يضع نفسه من هذه المنازل كلها . وليعلم أن الله يحب معالي الأمور ، ويكره أسافلها . فإلى العلا . . . والله المستعان .

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ . (٢) سورة الأنفال : ٧٢ .

(٣) سورة الحشر : ٩ . (٤) سورة التغابن : ١٦ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

وجــوه البــذل

الحمد لله وبه نستعين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد :

بعد أن وصّانا القرآن الكريم بواجب البر والإحسان ، رسم لنا الخطة المثلى ، التي افترضها الله علينا في هذا الإحسان . فأمرنا أن نتخير مبراتنا من أطيب أموالنا وأحبها إلينا ، لا من أبخسها وأهونها علينا ، ثم لم يترك لنا الخيرة في تقدير الجزء الذي نبذله ، بل أشار إلى تحديد الحد الأدنى منه بحدين نسبيين : حد يتبع مقادير أموالنا قلة وكثرة ، يتصاعد بتصاعدها ، وحد يتبع ضرورات الناس وحاجاتهم ، ويقدر بقدرها .

هكذا تبينت لنا حدود الواجب في فريضة البر ، سواء من حيث رتبتها وجودتها ، أو من حيث مقدارها وكميتها .

وبقيت جوانب أخرى من هذه المبرات المفروضة جديرة بالبحث والبيان .

عرفنا « كم » نؤدي منها ، ولكننا لم نعرف « كيف » نؤديها ؟ .

وعرفنا : « من أين » نخرجها ، ولكننا لم نعرف « أين » نضعها ؟ .

فليكن حديثنا اليـوم عن التوجيهـات القرآنية الحكيمة ، في اختيار مصارف البر ووجوه بذله . ولنتذكر قبل كل شيء أن القرآن المجيد ، حين دعانا إلى بذل المال في وجوهه المختلفة ؛ على النفس وعلى الأُسرة ، وعلى من وراء ذلك من أبناء الأُمّة ، لم يسوّ بين هذه الأنواع الثلاثة في أسلوب دعوته ، ولكنه اختص هذا التصرف الثالث - أعني شؤون المجتمع - فوجه إليه جل عنايته ، وجعله وحده هو عنوان الطهر ، ومعيار التزكية : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »[1] .. فمن كانت نفقاته محصورة في نطاق حاجاته وحاجات أُسرته ، ولمن بذل

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

فيهما عن فيض وسعة ، فإنه في نظر القرآن ، لا يزال منغمساً في حمأة الفردية والأنانية ، ولن يستحق منه لقب الطهر ، حتى يخرج حاله عن هذا النطاق المحدود ، وحتى يدخل به في محيط الأسرة الكبرى .

هذه الدعوة العامة إلى كل ذي فضل ، أن يمد بساط فضله خارج نطاق أسرته ، ترى كيف كنا نفسرها ، لو أن الإسلام وقف في بيانها عند هذا الحد المجمل ؟!.

حسبنا أن نلقي نظرة على أخبار الكرم والكرماء ، في كل زمان . بل حسبنا أن نلقي نظرة على أساليبنا العصرية في الدعوة إلى ولائمنا ومآدبنا ، ومظاهر توسعنا في شتى الملابسات ؛ ألسنا - حين نفكر في هذا التوسع الكريم - يتجه تفكيرنا إلى من هم على شاكلتنا ، من الخلطاء والأصدقاء ، أو إلى من نعرف من النابهين والكبراء ، ناسين أو متناسين من هم دوننا ، ومن هم أحق ببرنا ، من الخاملين والضعفاء ؟!. ألسنا - في الأعم الأغلب - نطعم المطعومين ، ونحرم المحرومين ؟!. فلو تركت لنا الخيرة في أسلوب نشر البر ، ألا تكون هذه الصورة هي أقرب الصور

إلى أذهاننا ، وأدناها إلى تحقيق فضيلة السخاء في نظرنا ؟.

ولكن الله كان أرحم بالأُمّة ، من أن يكل شريعة برّها إلى حكم كل امرئٍ في نفسه ، بل كان أرحم بها من أن يكتفي في تشريعها ببيان رسوله ونبيه - صلى الله عليه وسلم - فسجلها في كتابه محكمة مفصلة ، جامعة مانعة :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[(١)] .

ثمانية أبواب ، حددت حاجات الأُمّة ومطالبها الرئيسية وفصلتها تفصيلاً ، تناولت به أهم شؤون الأُمّة ، وأهم شؤون الدولة ، وقالت للباذلين والمنتفعين : ها هنا فلتولوا وجوهكم . ها هنا فلتضعوا فضل أموالكم ، سداً لتلك الحاجات ، وتحقيقاً لتلك المطالب .

ثمانية أبواب ، يكفي أن نطلع على بضعة منها ، لنعرف كيف اتخذ القرآن من هذه الفريضة الاجتماعية ، أساساً

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

لبيان قومي مثالي ، يجمع إلى عناصر القوة والحرمة عناصر الحياة السعيدة والعيشة الرغيدة .

نعم ، يريد الله بهذا التشريع ، ألا يكون في بلاد الإسلام فرد واحد إلا وله مسكن يؤويه ، وأثاث يرتفق به في مسكنه ، وله كسوة للشتاء والصيف ، وله مركب وخادم إن عجز عن السعي بنفسه ، وعنده فوق ذلك ما يكفي لقوته سنة كاملة ... فمن أعوزه شيء من ذلك ، فهو في نظر المحققين من الأئمة فقير ، له علينا الحق في رفعه إلى هذا المستوى . فإن لم تف حصيلة الزكاة ، بإبلاغه إلى هذا الحد الأدنى ، وجب علينا في حل أموالنا ، ما نوفر له به هذه المرافق الضرورية ، ثم ما يوفر له قوته أولاً ، بتهيئة عمل له يتكسب به يوماً بيوم ... فهذا هو سهم الفقراء والمساكين .

ثم يريد الله ، ألا يكون في بلاد الإسلام ، مدين يرهقه الدين – الذي استدانه في حلال – ولم يجد له وفاءً ، أو مدين يثقله دين تحمل به في بر الغير ، ولو كان عنده وفاء به . بل علينا أن نؤدي عن المدينين ما يقضي دينهم . وهذا هو سهم الغارمين .

ثم يريد الله ، ألا يكون ببلاد الإسلام غريب انقطعت به الأسباب عن بلده وماله ، إلا آويناه وأرفقناه ، وزودناه ما يبلغه موطنه . . . وذلك هو سهم ابن السبيل .

ثم يريد الله ، ألا يكون تحت يد المشركين أو غيرهم أحد من المسلمين يرسف في قيد الأسر ، أو يرزح تحت نير الاستعباد ، إلا افتديناه وفككنا إساره ، ورددنا إليه حريته . . . وذلك هو سهم الرقاب .

وأخيراً يريد الله لدولة الإسلام ، أن تكون قوية الشوكة عزيزة الجانب ، ولذلك افترض علينا في أموالنا ما نمهد به أسباب قوتها ، وحماية حوزتها .. وذلك هو سبيل الله أو هو على أبواب سبيل الله .

أرأيت ؟. بعد أن وصانا القرآن بالبر والإحسان ، كيف نظم لنا طرائق البر والإحسان ؟. وكيف جعل من هذه الفريضة الاجتماعية ، بناءً لأُمّة مثالية ، ودولة مثالية ؟.

ذلكم هو حكم الله فيها : « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .[1] صدق الله العظيم .

---

(١) سورة المائدة : ٥٠ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

أسلوب البذل في القـرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين ، الرؤوف الرحيم ، الواسع بعطائه على عباده . والصلاة والسلام على أفضل خلقه ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وبعـــد :

ما أحكم وما أرحم نظرة القرآن الكريم إلى معنى البر والإحسان !.

وما أعمق وما أرفق نظرة القرآن إلى كرامة الإنسان المستحق للإحسان !.

ليس الشأن كل الشأن عند الله ، في أن ننتخب مادة العطاء ونحسن اختيارها ... وليس الشأن كل الشأن في أن نجزل العطية ونوفي مقدارها . وليس الشأن كل الشأن في أن نحسن توزيعها ووضعها في مواضعها : إغناءً للفقير وإيواءً للغريب وتحريراً للرقاب ، ودفاعاً عن الملة والدولة .

كل ذلك لا شك جميل ، بل كل ذلك واجب محتوم وصانا به القرآن ، وشدد علينا فيه الوصية ، ولكن هذه الوصايا كلها – في جملتها وتفصيلها – ليست إلا شيئاً يسيراً ، إذا قيست إلى العنصر الإنساني ، الذي اشترطه القرآن في أُسلوب البذل وطريقته ؛ ذلك هو واجب التلطف في الأَداء ، رفقاً بشعور المستحقين ، وصوناً لماء وجوههم وإبقاءً على عزتهم وكرامتهم . . .

نعم . إن الله لا يعنيه منك أَن تقضي حاجة المحتاج بقدر ما يعنيه منك أَلاّ تجرح شعوره بعطيتك ، وأَلاّ تمتهن كرامته بقولك أَو بفعلك أَو بإشارتك ، لا قبل العطاء ، ولا حين العطاء . . . أَرأَيت إن وضعت منحتك في كف الفقير وأَنت تنظر إليه ، أَو تقول له نكراً ؟. أَرأَيت إن استكثرت عليه عطيتك، أَو تمنيت لو أَنك أَخرت شيئاً منها لنفسك ؟. أَرأَيت إن استشعرت الفضل عليه بما لك من اليد العليا ، أَو أَشعرته بموقفه الضارع المستكين ؟. أَرأَيت إن ذكرته – ولو بعد حين – بما أَسديت إليه من برك ومنحته من معروفك ؟.. ترى هل يبقى لك بعد ذلك

شيء من الفضل ؟. أم هل تطمع عند الله في شيءٍ من الأجر ؟.

هيهات !! لقد أضعت بذلك عملك هباءً ، وكنت أنت ومانع الخير سواءً ، بل لعل البخل كان خيراً من بذلك ، والحرمان أفضل من إحسانك ... فإن كنت في شك من هـذا فاقرأ قول الله ـ عز وجل : « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ »(١) .. « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا »(٢) ..

إنما الفضل والأجر لمن أنفق نفقته طيبة بها نفسه عفًّا فيها لسانه ، مكفوفاً عنها منّه وأذاه : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٣).

(١ ، ٢) سورة البقرة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦٢ .

والقرآن بعد ذلك لا يكتفي منا بهذا الموقف السلبي . . إنه يصف لنـــا المؤمنين الصادقين ، أكرم طبعاً ، وأشد تواضعاً ، من أن يقفوا مع المسكين على قدم المساواة . . إنه يصورهم لنا خافضي الجناح ، متطامني الظهور ، كأنهم يعدون الفقير صاحب الفضل في قبول برهم ، وفي إتاحة الفرصة لهم لينالوا رضوان الله ، فتراهم في ساعة بذلهم أشد منه خضوعاً ، وأعظم خشوعاً . إنهم كما وصفهم الله تعالى : « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ »[1] . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ »[2] . أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قلت يا رسول الله ، قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ » أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب وهو مع ذلك يخاف الله ؟ . قـال – عليه السلام . (لَا . ولكِنِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ مَعَ ذلِكَ يَخَافُ أَلَّا يَتَقَبَّلَ اللهُ مِنْهُ) . وفي رواية أخرى ؛ قالت عائشة : أهو الرجل يذنب الذنب وهو وجل منه ؟ . قال : (لَا . وَلكِنْ هُمُ

---

(١) سورة المائدة : ٥٥ . (٢) سورة المؤمنون : ٦٠ .

الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) .

ولقد ضرب الله لنا في كتابه العزيز مثلاً من صنيع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً »(١) . وكانوا مع ذلك يقولون : « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْـرَةً وَسُرُوراً »(٢) .

هذه الوصية الواجبة على المتصدقين ؛ أن يتخذوا في عطائهم ذلك الأسلوب الرحيم الكريم ، لخجل الرجل الخاضع المتواضع . يضيف القرآن إليها وصية أخرى غير ملزمة ، ولكنها يزداد بها الإحسان حسناً ، وتزيد بها كرامة الفقراء حفظاً وصوناً ... تلك هي وصية الإسرار بالصدقات وإخفائها عن أعين الناس ، بعداً بباذلها عن بواعث الفخار والرياء ، وبعداً بآخذها عن عوامل الخجل والاستحياء حتى إنها كلما خفي مكانها ، ازداد عند الله ميزانها . أليس أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة

(١) سورة الانسان : ٨ .   (٢) سورة الانسان : ١٠ ، ١١ .

رجل أخفي صدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ؟ .

فإذا كان القصد من إعلانها ، إثارة باعثة الخير عند الغير ، وفتح باب الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة لكي يستن الناس بسنته ، فيكون حظ المحتاجين أوفر بهذا التعاون على البر ، فلا بأس بهذا الإعلان .

كما أنه إذا كان يخشي من دوام إخفائها التعرض لسوء الظن ، وفتح باب التهمة الباطلة ، فلا بأس كذلك بأن يعلنها على قدر ما تزول به الريبة ، ولا سيما في الصدقات الواجبة .

أما إذا لم يكن هنالك باعث صحيح ، من هذه البواعث وأمثالها ، فإن الإسرار بها أكمل وأفضل : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(١) .

---

(٥) سورة البقرة : ٢٧١ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

بواعث البر والاحسان

اللهم لك الحمد على ما أنعمت . وأنت المستعان . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، نبي البر والرحمة والإحسان ، وعلى آله وصحبه الكرام .

وبعد :

أسئلة أربعة حق على كل متصدق – حين يتصدق – أن يلقيها على نفسه باديء ذي بدءٍ ، وأن يهتدي في جوابها بهدي القرآن الكريم ... أسئلة أربعة : من أين أُخرجها ؟. إلى أين أبعث بها ؟. كم أبذل ؟. وكيف أبذل ؟.

وقد سألنا : من أين ننتخب مادة عطياتنا ؟. فأجابنا القرآن الكريم : من أطيب أموالكم وأحبها إليكم : « أَنْفِقُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ »[1] . « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »[2] . . .

ثم سألنا عن مقدار ما نبذل ؟ . فأرشدنا القرآن الكريم إلى حده الأقصى : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ »[3] . كما أرشدنا إلى حده الأدنى بمقياسه : الحق المعلوم والحق غير المعلوم . . .

ثم سألنا : أين نضع مبراتنا ؟ . ففتح لنا القرآن ثمانية أبواب ؛ تكفل العيش الرغيد لأمتنا ، والقوة المهيمنة لدولتنا . . .

وأخيراً سألنا : كيف نتقدم بصدقاتنا إلى مستحقيها ؟. فعلمنا القرآن أرق الأساليب وأرفقها ؛ أدب متواضع وتلطف صامت ، لا جلبة فيه ولا صخب ، ولا منٌّ فيه ولا أذى . . ولقد رأينا كيف رفع القرآن هذا العنصر الإنساني الكريم إلى منزلة تربو على تلك العناصر المادية جميعاً : « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى »[4] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٧ .
(٢) سورة آل عمران : ٩٢ .
(٣) سورة البقرة : ١٩٥ .
(٤) سورة البقرة : ٢٦٣ .

أما بعد : فهل وقفت وصايا البر عند هذا الحد ؟ . هل ينال بالصدقة رضوان الله كاملاً ، متى استكملت هذه العناصر الأربعة فحسب ؟ .

كلا . لقد بقي عنصر أنفس وأقدس من تلك العناصر كلها ، عنصر لو سلم لها من أول الأمر لسلمت سائر العناصر ولو بطل أو فسد لحبطت سائر العناصر . عنصر لا يتصل بمنبع العطاء ولا بأحقيته ولا بمقداره ولا بأسلوبه . عنصر ليس مادياً ولا اجتماعياً ، ولكنه معنوي نفساني يسكن في أعماق صدورنا ، يدفعنا إلى العدل ، وتتحرك همتنا إليه ؛ ذلك هو عنصر الباعث أو النية ، الذي تتحدد فيه غايات الأعمال ومقاصدها ، والذي يدور على ميزان القيم في نظر الخلق والدين : (إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) . نعم . إنك لترى العمل ، فتراه في ذاته عملاً مبروراً . فإذا اطلعت على مقاصده وبواعثه ، وجدته قد انقلب إثماً وفجوراً ، أو قد تحول شغلاً دنيوياً مباحاً لا بر فيه ولا فجور .

من أجل ذلك كان حقاً على المؤمن ـ قبل الإقدام على

عمل ما ـ أن يلقي على نفسه هذا السؤال ، وأن يلح على نفسه في طلب الرد عليه : ماذا تبتغين أيتها النفس من هذا العمل ؟ . فإذا ظفر منها بإجابة صحيحة صريحة ، غير مخدوعة ولا مخادعة ، فليعرض هذه الإجابة على مرآة القرآن وليختبرها بالمعايير التي وضعها القرآن ، ليستبين بذلك قيمة عمله ، بل ليستبين درجة إيمانه ، بل لينكشف له جوهر نفسه ومعدن روحه ، فيعلم : هل علوية ربانية هي ، أم شيطانية ماردة ، أم طينية باردة ؟ . ولعله ليست هناك قضية عنى القرآن بتحليل بواعثها وتحديد قيمها ، على ضوء تلك البواعث ، أشد من عنايته بقضية البذل والإنفاق وترتيب منازلها ؛ برها وفاجرها وما بين ذلك .

والتاريخ القديم والحديث للبشرية مشحون بالمثل والصور التي ينطبق عليها حكم القرآن : هذا رجل من الناس يغمرك بكرمه ، لتسكن إليه وتأمن قائلته ؛ يبدي لك الخير والبر ، ولكنه يضمر المكر والغدر !.. حذار حذار . إنه يسمنك ليأكلك ، ويستدرجك ليقتلك . كمثل اليهود ، حين دعوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى

طعامهم ، وقد دسّوا له السم في اللحم : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[1] .

وهذا رجل آخر ؛ يمنحك من فضله ونواله ، لا ليكرمك ولكن ليستعبدك ويستخدمك ! . يحاول أن يشتري ضميرك وذمتك ، أو لسانك وقلمك ، أو يدك وساعدك ... فإن لم يكن يريد أن يضربك ، فإنه يريد أن يضرب بك . لا ليضرب بك عند الباطل ، وينصر بك كلمة الحق . ولكن ليحارب بك الله ورسوله ، ويصد بك عن سبيله . فتلك هي النفوس الشيطانية ، التي وصف الله لنا أمثالها في القرآن الكريم : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »[2] . وطائفة من الناس تراها تنفق عن سعة ، وتبذل عن سخاءٍ ولا تبتغي بأموالها شراً ، ولا تضمر لأحد غدراً ، ولكنها تخضع لشهوة خفية من حب الظهور ، وطلب السمعة المحببة عند الآخرين . فذلك هو الرياءُ الذي وصفه الله لنا

(١) سورة آل عمران : ٥٤ .
(٢) سورة الأنفال : ٣٦ .

في كتابه المجيد، كيف يحبط الصدقات، كما تهلك النار الزروع والثمار: «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ»(١).

وطائفة أُخرى تجعل مبراتها مقايضة ومبادلة، تسد بها ديناً سابقاً من الجميل والمعروف، أَو تفتح بها ديناً جديداً تتقاضى فيه مكافأَة؛ الحسنة بمثلها أَو بأَحسن منها ... هؤلاءِ وهؤلاءِ تجار يستوفون أُجورهم في هذه العاجلة، ولا يبقى لهم منها رصيد في الآجلة ... وتلك هي النفوس الأَرضية الطينية .. أَلا ترى الله حين وعد المتقين وعده الجميل، اشترط أَن تتجرد صدقاتهم من هذه المبادلات والمعاوضات السابقة واللاحقة؟. هكذا يقول – جل شأْنه – «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى»(٢). ويقول: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً»(٣).

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٦. (٢) سورة الليل: ١٧ – ٢٠.

(٣) سورة الانسان: ٩.

أما النية المثالية في الصدقات ؛ فهي النية النقيـة المصفاة من كل عوض ، المنزهة عن كل غرض ، وإنما يقصد بها وجه الله تعالى خالصاً ، وتلك هي النفوس العلوية الربانية ، التي وصفها القرآن الكريم في غير ما آية : « وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ »[1] . « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ »[2] . « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ »[3] . صدق الله العظيم .

(١) سورة البقرة : ٢٧٢ .
(٢) سورة النساء : ١١٤ .
(٣) سورة الليل : ٢٠ ، ٢١ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

طهارة القلوب من الغل والحسد

الحمد لله مقلب القلوب ، والناهي عن الحقد والحسد. والصلاة والسلام على الهادي إلى الصراط المستقيم ، والناهي عن كل فعل ذميم ، وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وبعد :

كانت أول حملة تطهيرية أعلنها القرآن في مكة ـ بعد حملته على الشرك والوثنية ـ حملته على ذلك الداء الاجتماعي الوبيل ، داء تكديس الأموال وتجميعها ، وحبسها من الانتفاع بها في وجوهها المختلفة ، لخدمة الفرد والجماعة .

عشرات من السور المكية ، كان من أوائل أهدافها تليين تلك القلوب المتحجرة ، وحل تلك الأنامل المعقودة تطهيراً لها من وصمة الشح والبخل ، وتحلية لها بحلية

السخاءِ والبذل . . . ثم لم يقصر القرآن دعوته على واجدي المال ، مناشداً إياهم أن يبذلوه ، ولكنه دعا كذلك فاقدي المال ، أن يشقوا ويجدوا ليكتسبوه ويبذلوه . .

وبعد أن رأينـا القرآن يضع أساس فريضة الكسب وأساس فريضة البذل ، رأيناه يرسم لكلتا الفريضتين آدابها ومناهجها ؛ من حيث الوسائل والمقاصد ، ومن حيث المصادر والموارد ، ومن حيث المقادير والمعايير .

هذه الحملة الواسعة المنظمة ، في مكافحة مرض الحرص والبخل ، إنما كان هدفها ذلك النوع الذي يعرفه الناس باسمه ، وهو ضن الإنسان الواجد بشيئه الذي في يده .

غير أن هناك نوعاً آخر ، لا يعرفه الناس باسم البخل وهو مع ذلك شر أنواع البخل ، وأذل ضروب الحرص وهو مرض يصاب به الغني والفقير ، والواجد والمحروم على السواءِ ؛ ذلك هو ضن الإنسان بشيءٍ غيره ، وبما ليس في يده . .

ماذا نقول ؟!. هل يتصور في العقل أن أحداً يضن

بشيء غيره ، وبما ليس في يده ؟!. نعم . وهل الحقد والحسد إلا ذلك ؟!.

فالحسود لا يبخل على محسوده بما عنده فحسب ، بل يكره أن تصل نعمة الله إليه ، ولا يرضى أن ينزل الله من فضله عليه ... إنه عدو نعمة الله ورحمته ، لو استطاع أن يمنعها عن الغير لمنعها ، ولو رآها وصلت إليه لتمنى زوالها وسعى سعيه لتحويلها ... هذه النفوس الشحيحة الطبع لو وكلت على خزائن الله ، لأغلقت أبوابها دون خلق الله أو لحولت قليلاً منها إلى من تشاءُ، وصرفته عمن تشاءُ.. هكذا وصفها الله في كتابه الحكيم : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً »[1] . « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ »[2] . « وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ »[3] .

الحسود إذاً ساخط على قضاءِ الله وقدره ، غير راضٍ عن حكمته في قسمته . وهذا أول باب من الكفر والمعصية

(١) سورة الإسراء : ١٠٠ .   (٢) سورة الزخرف : ٣٢ .
(٣) سورة المؤمنون : ٧١ .

ظهر في السماء ، وأول باب من الكفر والمعصية ظهر في الأرض ؛ حسد إبليس آدم ، فأبى أن يسجد له ، ثم حسد ابن آدم أخاه : « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ »[1] .

مثل الحاسدين أمام قافلة المقادير ، كمثل الكلاب تنبح والقافلة تسير ... من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، وقدر الله نافذ على الحالين ، لن يرد حسد الحاسدين منه شيئاً ، ولن يحول مجراه قيد أنملة .

الحسد إذاً محاولة عابثة فاشلة ، بل نقول : إنه حركة يائسة ، ورمية طائشة ، تفضي إلى عكس مقصودها ، ويرجع سهمها إلى نحر راميها . ذلك أنه لا يشفي غلة صاحبه ، بل يزيد غلته ، ويضاعف كمده وحسرته ... انظر إلى الحسود وهو يشعل نار الحسد ، يحسب أنه يحرق بها غيره وهو بها يحترق . ثم استمع إلى حركات أنفاسه وهو يتابعها ، يظن أنه ينفس بها عن صدره ، وهو في الحقيقة يختنق ... ألا إن ذلك هو الانتحار البطيءُ : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ ثُمَّ

(١) سورة المائدة : ٣٠ .

لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ »[1] . كلا . لن يذهب ما يغيظ ، ولكنه يذهب نفسه ، ويضحي بحياته : « قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »[2] .

وترى الحاسدين في الناس رجلين ؛ أحدهما أقل إجراماً ، وأيسر علاجاً من صاحبه :

رجل يريد أن يسلبك نعمة هو فاقدها ، لتتحول هذه النعمة عنك إليه !!.

ورجل يريد أن يسلبك هذه النعمة ، ولو كان عنده مثلها أو أضعافها ، ولم يتحول إليه أوفى نصيب منها ! !.

أما الفئة الأُولى ؛ فإن مطلبها الأعظم هو خير نفسها ولكنها أخطأت السبيل ، فالتمسته من طريق حرمان غيرها . حسنت مقصداً ، وساءت وسيلة .

وأما الفئة الأُخري ؛ فقد جمعت بين الرذيلتين : إنها تطلب الشر للغير ولو لم يصل إليها منه خير . إنها تبغي الشر للشر . قبحت مقصداً وساءت سبيلاً . .

كيف تطهر النفوس من هذا المرض بنوعيه ؟ .

---

(١) سورة الحج : ١٥ .   (٢) سورة آل عمران : ١١٩ .

هلم بنا إلى منهل القرآن الحكيم ، نغترف منه مادة هذا التطهير .. ولنبدأ بالنفوس التي هي أقبل للدواء ، وأدنى إلى الشفاء . تلك النفوس المتعطشة إلى رزقها ، ولكنها في طلبها لهذا الرزق ، كانت ضيقة الأُفق قصيرة النظر ، قليلة التبصر والحذر ، فأخذت تقتحم الأسوار الممنوعة وترتع في الحمي المحرم ، تزاحم أرباب الحمى بمناكبها ، وتدوسهم بأقدامها ؛ تريد أن تطردهم من دارهم ، وأن تأخذ هي مكانهم !..

فلنسمع إلى صوت الهدى وهو يناشدها ليردها إلى الطريق السوي :

أيها النفوس الشرود !! لفتة يسيرة . تري أنك تقحمت المضيق وتنكبت الطريق ، تاركة وراءك الآفاق الفساح ، والرزق الهنيء المباح .. أحسبت أن رزق الله قد ضاقت حدوده ، وانحصرت موارده في هذا الذي بأيدي الناس ؟!. كلا . إن أرض الله واسعة ، فاسلكي سبلها ذللاً . وإن سماء الله أوسع ، فأوسعيها رجاءً وأملاً .

أيها الناس : لقد أبدلكم الله بهذا الطريق الضيق

الموحش ، طريقين اثنين واسعين آمنين . . . دعوا إذاً هذا التشهي والتمني لما في أيدي الخلق : « وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ »(١) . ولكن دونكم ميدان الكسب والعمل ، ففيه متسع للسالكين : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ »(٢) . ثم دونكم قبلة الرجاءِ والأمل ، ففيها متسع للسائلين : « وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »(٣) .

(١ ، ٢ ، ٣) سورة النساء : ٣٢ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

طهارة القلوب المنحرفة

الحمد لك يا إلهي ومولاي . طهرت قلبي من النفاق فطهر عملي من الرياء . وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الخلق كافة ، وعلى آله وأصحابه الكرام .

وبعد :

قلوب .. وقلوب ..

قلوب مؤتفكة منقلبة .. وقلوب منحرفة كثيراً .. وقلوب منحرفة يسيراً ..

قلوب مؤتفكة منقلبة : تطلب الشر للغير ، ولو لم ينلها منه خير .. إنها تحب الشر للشر ..

وقلوب منحرفة كثيراً : تبتغي لنفسها الخير ، ولو من طريق حرمان الغير . فالغاية عندها تبرر كل وسيلة ..

وقلوب منحرفة يسيراً : تحب لنفسها الخير مع الغير ولكنها تحط جل نظرها عند الخير الأدنى ، ولا تتسامى به إلى الخير الأعلى . .

ها هنا إذاً أزواج ثلاثة في حاجة إلى الطب والعلاج . . ومن اتخذ القرآن الحكيم إماماً وهادياً ، فسوف يجد فيه الطبيب الذي يشخص الداء ، والصيدلاني الذي يحضر له الدواء من كل ما يشكو أو يحاذر .

فأما القلوب المؤتفكة المنقلبة ، فتلك هي القلوب المظلمة القاتمة ، المنطوية على بغض الخلق ، وكراهة الخير لهم . تلك التي لا يعنيها نفع ذاتها بقدر ما يعنيها ضرر غيرها ... راحتها وهناءتها في أن ترى نعمة عنك مزالة أو محنة إليك مجلوبة ، أو خيراً عنك ممنوعاً ، أو مصاباً بك نازلاً ... وغيظها وشجوها في أن يصادفك حظ ، أو يحالفك توفيق ، أو ييسر لك أمر ، أو يرتفع لك ذكر أو يساق إليك رزق ، أو يجري على يديك نفع ...

إن مرض هذه القلوب ليس هو الحسد فحسب ، ولكنه مرض مركب ، وما الحسد إلا إحدى شعبتيه ؛ حسد في

السراءِ وشماتة في الضراءِ . فأَصحابه أبداً في هم مقيم ملازم ؛ تسوؤهم مسرتك ، وتسرهم مساءتك . إنهم كما وصفهم الله تعالى : « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا »(1) . . نقول : إن مرضهم ليس هو الحسد ، ولكنه أَصل الحسد ومنبته . إنه الغل والحقد والضغينة . والغل والحقد والضغينة أَسماء مترادفة أَو تكاد لتلك العداوة الكمينة ، التي يمسكها صاحبها في صدره ويتربص بها الفرص المواتية ، لتنفث سمومها وترمي سهامها . .

هل من شأْن المؤمن أَن يحتفظ بهـذا الضغن لأَخيه المؤمن ؟!. أَليس المؤمنون كما وصفهم الله تعالى : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »(2) . « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ »(3) .

بل نقول : هل من شأْن الإِنسان أَن يحتفظ بهذا الضغن لأَخيه الإِنسان ؟!.

---

(1) سورة آل عمران : ١٢٠ . (2) سورة الفتح : ٢٩ .
(3) سورة المائدة : ٥٤ .

كل بشر يحب ويكره ، ويرضى ويغضب ، ويوالي ويعادي ، ولكن العاقل لا يوالي أحداً جملة ، ولا يعادي أحداً جملة . إنه يحب منك شيئاً ويكره شيئاً . يرضى منك عن خلق ويسخط خلقاً. يؤيدك في رأي ويخالفك في رأي غيره يحبذ منك قولاً أو فعلاً ، وينقم منك قولاً أو فعلاً آخر . . والعاقل يحب حبيبه هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضه يوماً ما. ويبغض بغيضه هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبه يوماً ما . . فكما يجب علينا – فيمن نحب – ألّا نقلب عيوبهم محاسن حتى نعدهم خيراً خالصاً ، كذلك يجب علينا – فيمن لا نحب – ألا نقلب محاسنهم عيوباً ، حتى نتخذهم عدواً خالصاً : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا »(1) . . لو كان في العالم مخلوق هو شر كله لكي يعادى ، لكان ذلك إبليس وحده ، على أن إبليس قد يصدق وهو كذوب كما جاء في الحديث الصحيح . فلو عادينا من أعماله شيئاً لعادينا صدقه لو صدق ؛ لأنه ليس بصديق لنا ، ألا وإن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها ، ألا وإن العاقل حليف الحق ، ينصر عليه ويساعد صاحبه أنى كان .

---

(٤) سورة المائدة : ٨ .

هكذا يجب أن نتبين مواقع حبنا وبغضنا في شأن معاملة أعدائنا ، فما الظن بأوليائنا ؟!. عجباً كيف يحمل المؤمن لأخيه ضغناً وحقداً ، ويبيت له السوء ، ويصر عليه ويتربص به الدوائر ، ويبتهج بوصول الشر إليه ؟!. فكأنه يأنس بخذلان أخيه ووصول النقمة إليه ، ولايراعي الصالح ولا يذكر أخوة الإيمان ، الذي يشير إليها القرآن الكريم بقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(١) .

بل ولا يذكر الأخوة الإنسانية ، التي ذكرها الله في كتابه : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ »(٢) .

ألا من أحس في صدره بشيء من الضغينة لأخيه المسلم ، بغير جناية ، أو لخلة يسيرة بدرت منه قهراً ، ثم تاب عنها وأناب ، فليعلم أن في فكرته شيئاً من الانتكاس والارتكاس. فليبادر إلى معاملة نفسه بتوجيهات القرآن الكريم ، أو بهدي سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن استعصى عليه الأمر ، ولم تنجح فيه تلك المجاهدات النفسية ، فليتوجه إلى الله بقلبه

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .   (٢) سورة الأعراف : ١٨٩ .

ضارعاً وسائلاً إياه ـ جلت قدرته ـ بأن يحول حاله إلى أحسن منها ، فهو الذي علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان .

« رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا . رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »[1] .

(١) سورة الحشر : ١٠ .

من وصايا القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

طهارة القلوب من الشر والانانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد :

الآيتان الكريمتان : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » . عرضنا منهما جانباً وبقي جانب آخر .

عرضنا منهما الجانب المثالي ؛ جانب العزيمة والتجرد الخالص . وبقي الجانب العملي ؛ جانب الرخصة والاستثناء . وقلنا : إن الحقد هو جريمة القلوب المنقلبة ، والنفوس المتنمرة ، التي تنطوي على العداوة والبغضاء ، تمسكها وتصر عليها ، ملتمسة لعدوها كل مكروه وبلية ، محاذرة من أن تجده في خير ونعمة . وقلنا : إن الحسد إذا لم ينبت في أرض الحقد ، فإنه ينبت في أرض الجشع والطمع . وهو خطيئة

القلوب المنحرفة ، والنفوس الطفيلية النزعة ، التي يسيل لعابها على الخير الذي في أيدي الناس ، فتشتهيه وتتمناه لنفسها ، ولو انتزاعاً من ملك غيرها ..

هما إذاً جرثومتان اثنتان ، يكمن فيهما أصل الداء . تلك العداوة التي توحي بمعنى الشر للأعداء ، وتلك الأنانية التي تسرف في حب الخير للنفس.

فلننظر الآن في مدى القدرة الإنسانية على التخلص من الجرثومة الأولى ؛ أعني نزعة الكراهية والبغضاء . هل في طاعة الفطرة البشرية أن تتجرد من هذه النزعة ، تجرداً كلياً ، في كل حال ؟.

هيهات .. دلني على واحد من البشر لا يكره ولا يعادي أقل لك : إنه إذاً لا يحب ولا يوالي . وإنه إذاً لا يحب الشر ، بل حب الخير في طبعه .. فهو إذاً يحب الحق والخير وبالتالي يحب أهل الحق وأهل الخير ويواليهم ، وهو إذاً يكره الإثم والعدوان ، ويكره أهل الإثم والعدوان ويعاديهم. ومتى كانت الكراهية والبغضاء تحدث على مبادئ وأسباب صحيحة ، فإن من شأنها أن تستقر وتستمر ، ما دامت

أسبابها موجودة ، ومن شأنها كذلك أن تستتبع آثارها ؛ فكيف إذاً يطالبنا القرآن بأن نمحو من قلوبنا البغض لكل أحد ، حتي للمجرمين ؟!. وكيف يحرم علينا إرادة الشر للشقي ؟!. وعدم الحب للأشرار والمعتدين ؟ .

مهلاً أيها السائل . إن أخص ما تمتاز به وصايا القرآن أنها - مع سموها ونبلها - لا تتطلب المحال ، ولا تتشبث بالخيال إنها - مع مثاليتها - عملية واقعية لا تحمل النفوس على ضد طباعها ، ولا تكلف نفساً إلا وسعها . وما الوصية التي نحن بسبيلها إلا واحدة من تلك الوصايا الحكيمة الجامعة بين المثالية والواقعية . إنها لا تحظر البغض كله ولا تحرمه جملة . إنها تحظر عليك أن تبغض أخاك لمجرد هواك ؛ لغير ذنب جنــاه ، ولكن بادىء ذي بدء ، حنقاً ونفاسة عليه . وإنها تحرم عليك أن تكره الخير لأخيك ، طالما أنه لم يستعن بهذا الخير على شيء يغضب ربك أو يؤذيك . ولكنها لا تمنع أحداً من أن يبغض الإثم وأهله ، وأن يمقت البغي وشقيقه الظلم .. أما علمت أن من علامة الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، والرضا في الله والسخط في الله ؟ . قال تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ »[1] . نعم .. إن دعوة القرآن - في جوهرها - دعوة حب ووئام ، ولكنها في الوقت نفسه دعوة عدل ونظام . إنها تغضب للحرمات المنهوكة والدماء المسفوكة ، وللحقوق وللأمانات المضيعة . وهي بذلك تطالبنا أن نرد الحق إلى صاحبه ، وعلينا أن نأخذ الجاني بذنبه : « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »[2] .

على أننا لو تأملنا في نظرة الإسلام إلى عقوبة الباغي وجدناه لا يرى فيها إرادة شر به ، بل أراد سعياً له في خيره ونصراً له على نفسه . هكذا سماه الرسول - صلوات الله عليه - حيث يقول : (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً) . قيل : كيف أنصره ظالماً ؟!. قال : (تَحْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذٰلِكَ نَصْرُهُ) . بل إن المعجزة الرادعة التي تمحق طغيان البغي ، لا يرى فيها القرآن خيراً للباغي فحسب ، بل يرى فيها خير المجتمع كله ، بل أساس حياته الصالحة . يقول الله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »[3] . ثم يرى في هذه العقوبة الرادعة ترضية محبوبة للنفوس

---

(1) سورة المجادلة : ٢٢ .
(2) سورة الشورى : ٤١ .
(3) سورة البقرة : ١٧٩ .

المؤمنة ، الحريصة على صيانة الحق والعدل في الأرض .

واستمع لأمر الله سبحانه وتعالى : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ »(١) .

هكذا ، بعد أن وضع القرآن قانون المحبة والرحمة وجعله هو العزيمة الأُولى ، رخص لنا عداوة من يستحق العداوة ، وعقوبة من يستوجب العقوبة .

غير أنه لكي يفضي بنا إلى صدور الرخصة ، ولا يدعنا نتجاوز قدر الضرورة ، وصانا بأربع وصايا :

الوصية الأولى : التحقق والتثبت من وقائع الذنب حتى لا نأخذ بالشبهة أو الظن . قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٢) .

---

(١) سورة التوبة : ١٤ ، ١٥ .
(٢) سورة النساء : ٩٤ .

الوصية الثانية : ألّا نأخذ جاراً بجرم جاره ، ولا أحداً بذنب أخيه . قال تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ »[1] .

الوصية الثالثة : أن تكون العقوبة على قدر الجريمة . قال تعالى : « وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ »[2] .

الوصية الرابعة : وقف الجزاء متى توقف الجاني عن جنايته ، وذلك بالكف عن عقوبة المتهمين . يقول الله تعالى : « فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ »[3] .

ويقول - جل ذكره - : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[4] .

اللهم أدبنا بآداب كتابك . واجعلنا من المحافظين على وصاياك. الواقفين عند حدودك. اللهم آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النجم : ٣٦ - ٣٩ . (٢ و ٣) سورة البقرة : ١٩٤ .
(٤) سورة المائدة : ٣٤ .

من صفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

صفات عامة

اللهم لك الحمد كما هديتنا للإسلام ، ومننت علينا باتباع محمد سيد الأَنام ، وصلاة ربّي وأَجل تسليماته عليه وعلى آله وأَصحابه . وبعد :

قال المربّي : أَيها الفتى الماجد النبيل ، أَرأَيت الناس حين يلقى بعضهم بعضاً ؟ . أَرأَيت كيف يبدأُ كل منهم أَخاه بالسؤال عن صحته ؟ . فإذا أَنا حيّيتك الآن وبدأْتك بالسؤال عن صحتك ، أَتظنني أَصنع كما يصنع الناس ؟ . إن أَول ما يعني الناس من أَلوان السلامة والعافية ، هو ما يتصل بهياكلهم وأَبدانهم . وتلك هي القشرة السطحية للجوهرة الإنسانية . أَما أَنا فإني لست عن هذه القشرة أَسأَلك ، فإني أَراك - والحمد لله - بخير ؛ سليم البنية موفور القوّة . وإنما أَسأَلك عن سرّك المصون وجوهرك المكنون أَسأَل عن صحة روحك ، وسلامة خلقك ودينك ، وصدق إيمانك ويقينك . فهل أَنت راض عن نفسك من هذه

الناحية ؟ . هل تعدّ نفسك في عداد المؤمنين الصادقين .؟

قال الفتى : ومالي لا أعدّ نفسي في عداد المؤمنين الصادقين ، وأنا أُؤمن بالله وكتبه ورسله ، وأؤمن بالقدر كله خيره وشره ، لا يخالجني في ذلك شك ولا ريب ؟ .

قال المربّي : لست عن مبادئ الإيمان النظري أستفصلك وإنما أسألك عن حقيقة الإيمان المستجمع لشرائطه ؛ عن الإيمان في صورته الكاملة ، التي صوّرها لنا القرآن الحكيم وجعلها شرطاً في استحقاق لقب ؛ المؤمنين الصادقين ، ولقب المتقين ، ولقب أُولي الألباب ، ولقب عباد الرحمن .. فقبل أن تشهد لنفسك بصدق الإيمان ، عليك أن تنظر في مرآة القرآن ، لترى فيها صورة الإيمان الصادق ، وصورة الإيمان البهرج الزائف ، ثم اعرض نفسك على كلتا الصورتين لتعرف إلى أيهما أنت أقرب ، وإلى أيهما أنت أحق أن تنتسب .

قال الفتى : هل لك في أن تقدم لي نموذجاً من الخطوط التي تتألف منها هاتان الصورتان ؟ .

قال المربّي : وماذا أنت صانع بهذا النموذج ، إذا

قربته إليك ؟. أتريد أن تنظر إليه نظرة جامدة واقفة ؟. أم تريد أن تنظر فيه نظرة فعّالة مثمرة ؟.

قال الفتى : ما النظرة الجامدة ؟. وما النظرة المتحركة ؟.

قال المربي : أما النظرة الجامدة الواقفة ؛ فهي نظرة المعرفة للمعرفة . وأما النظرة الفعّالة المثمرة ؛ فهي نظرة العلم للعمل . . فإذا كان الذي يحدوك إلى السؤال ، إنما هو حب الاطلاع ، لتحكم لنفسك أو عليها وكفى ، حتى إذا وجدت خيراً رضيت عن نفسك ، ووقفت حيث أنت ، وإن وجدت غير ذلك ، سخطت على نفسك ، ووقفت حيث أنت . إن كان ذلك هو كل ما تقصد إليه من المعرفة ، فلا تطمع مني في أن أزيدك علماً ، فإني لا أحب أن أضيع وقتي معك في هذا الضرب من الترف العقلي ، ولا أحب أن أدخل في قلبك شيطان الغرور ، ولا شيطان اليأس. ثم إني ليحزنني أن يكون العلم الذي تزداده حجة عليك لا لك . . أما إن كنت تبتغي من هذه المعرفة ، أن نسير على ضوئها في طريق التطهر والكمال ، فلن أضن عليك ببيان صفات المؤمنين وصفات غير المؤمنين ، لتكون على بيّنة فيما تأتي أو تذر .

قال الفتى : أُحب أَن تطمئن - أَيها المربّي الحكيم - إلى أَن أَكبر همِّي ليس هو تلك المعرفة العابثة . وأَن أَغلى أَمانيّ هو أَن أَعرف ما يشوب نفسي من صفات غير المؤمنين لأَتطهر منها ، وما ينقصني من صفات المؤمنين لأَستكملها . غير أَن عندي مخاوف أُبديها لك ، ولا أَكتمها عنك . . . إن الذي أَخشـــاه وأُحاذره ، هو ما يصادف السالكين في طريقهم من عثرات ، وما يعتري النفس البشرية من هزّات وتقلبات . أَخشى أَن أَتطهر من سيئة ثم أَعود إليها ، وأَن أَصعد درجة ثم أَقف عندها أَو أَهبط منها . . . وهكذا تراني لا أَجرؤ أَن أُبايعك الآن بيعة بتة ، ولا أَن أُعاهدك عهداً موثقاً على أَن أَمضي في الطريق إلى نهايته ، أَو أَن أَصعد في السلم إلى قمته . فلو قلت لك اليوم ، أَنني لن أَدع خلة من خلال المؤمنين تعلمنيها إلا تحليت بها ، ولن أَدع خصلة من خصال غير المؤمنين تبصرني بها إلا اتقيتها ، أَخشى أَن أَجيءَ غداً أَو بعد غد فلا أُنجز لك وعدي ، ولا أُوفي لك بعهدي . وكيف أُبرئُ نفسي من الذنب كله ؛ دقه وجلِّه خطئه وعمده ، جدّه وهزله؟ . كيف؟. وكل بني آدم خطّاؤون ؟!.

قال المربّي : لقد سمعت يا بني مقالتك ، وأدركت سرّ مخافتك . يا بني إنه لا ينتظر من الجواد ألاَّ يكبو ولا من المؤمن ألاَّ يزل ، ولكن يطلب إليه إذا كبا أن ينهض من كبوته ، وإذا عثر أن يفيء من عثرته . وإني لن آمرك بأكثر مما أمرك الله به : اتق الله ما استطعت ؛ فكن إذاً عالي الهمّة ، ماضي العزم ، بعيد الأمل .. أمّل القدرة قبل العجز وقدّر النجاح قبل الفشل ، ولا تهن ولا تيأس ، واستعن بالله ، فإن الله يهب المعونة على قدر المؤونة ، ويمنح التوفيق على قدر العزيمة : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ »[1] . وحسبك الآن يا بني ، أن توطّن العزم على اجتناب كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم . فإن ألممت بذنب فأتبعه من فورك بمطهرات التوبة والندم فإن ذلك أيضاً من صفات المؤمنين : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ »[2] .

---

(١) سورة العنكبوت : ٦٩ . (٢) سورة آل عمران : ١٣٥ .

قال الفتى : أما على هذه الشريطة فإني أبايعك. وستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصي لك أمراً . والآن ، هل تدلني أين أجد هاتين اللوحتين من صفات المؤمنين ، وصفات غير المؤمنين ؟ .

قال المربّي : إنك ستجد عناصرهما منبثة في سور القرآن الكريم . . أما المؤمنون فإنك تجد كثيراً من أوصافهم ، في مطلع السورة المسماة باسمهم ، وفيما بين يديها وما خلفها من السور . اقرأ في سورتهم : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ،وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ»[1]. ثم : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »[2] ، واقرأ بعدها في سورة النور : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ »[3] ، وفي سورة الفرقان : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ، وَالَّذِينَ

(١) الآيات : ١ ــ ٥ .
(٢) الآيتان : ٨ ــ ٩ .
(٣) الآية : ٣٧ .

يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَاماً ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ »(1) .. ثم : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً »(2) ، وفي سورة الشورى : « وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ »(3) . وفي سورة الحجرات : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »(4) .

---

(1) الآيات : ٦٣ — ٦٨ .
(2) الآيات : ٧٢ — ٧٤ .
(3) الآيات : ٣٧ — ٣٩ .
(4) الآية : ١٥ .

ثم ارجع صاعداً فاقرأ في سورة الحج : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ »(1) . وفي سورة الرعد : « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ »(2) . وفي سورة التوبة : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ، الْحَامِدُونَ ، السَّائِحُونَ ، الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ، الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ »(3) . وفي سورة الأنفال : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا »(4) . وفي سورة البقرة : « وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ

---

(1) الآية : ٤١ .

(2) الآيات : ٢٠ — ٢٢ .

(3) الآية : ١١٢ .

(4) الآيات : ٢ — ٤ .

فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا . وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[1] ... يا بني . إنما أردت بهذا كله التنبيه والتمثيل ، لا الإحصاء والاستقصاء .

قال الفتى : وهل نطمع منك في أن تقفّي على هذا الإجمال بشيء من التفصيل ؟ .

قال المربي : نرجئُ ذلك إلى فرصة أُخرى تهيئها المقادير .. والله المستعان ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

---

(١) الآية : ١٧٧ .

من صفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ الخشوع في الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبالله نستعين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعد :

قال المربي : قد عرضت عليك ، أيها الفتى الأريب نماذج من آي الذكر الحكيم ، تناولت جملاً من أوصاف المؤمنين . وقد رغبت الآن أن أحدثك عن هذه الصفات حديثاً مفرّقاً مفصلاً ، بعد أن سمعت الحديث عنها مسروداً ومجملاً . فبأيها تحب أن نبدأ ؟ .

قال الفتى : من بين هذه المجاميع التي تناولت أوصاف المؤمنين ، مجموعة صدّرت بها السورة المسماة باسمهم : سورة المؤمنين . فلنبدأ بهذه المجموعة إن شئت ، ولنبدأ منها بما بدأ الله تعالى ؛ ألا وهو : شأن الصلاة .

قال المربي : لو أنك راجعت الآيات العشر ، التي في مطلع سورة المؤمنين ، لوجدت أن الصلاة لم تذكر في بدايتها فحسب ، بل ذكرت مرتين ؛ بها بدئت صفات المؤمنين وبها ختمت . وكذلك في سورة المعارج ؛ بها بدئت صفات المكرمين وبها ختمت .

قال الفتى : ما أعظم هذه العناية بشأن الصلاة !. ولكن ألا ترى في هذا تكراراً ينزه عنه كلام الحكماء ؟ . لا أقول بين سورة وسورة ، بل في السورة الواحدة ، وفي الجملة الواحدة ، يعد الشيءُ الواحد مرتين ؟!.

قال المربي : لو تدبرت ملياً ، لم تجد هنا تكراراً ولا شبه تكرار ، لا في الموضع الواحد ولا بين الموضعين . فإن كلمة الصلاة في الآيات الأربع لم تذكر وحدها ، بل أُضيف إليها في كل مرة قيد زائد ، وروعي فيها وصف جديد . ولو أنك أحصيت المواضيع التي أثنى القرآن فيها على المصلين ، لم تجد منها موضعاً واحداً يوجه فيه الثناء إلى الذين يصلون بإطلاق ، أو الذين يؤدون الصلاة على أي وجه كان ، وإنما تجد التكرمة دائماً قد أُعدت ، والبشارة قد وجهت إلى الذين « يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » . وإقامة الشيء

كلمة جزلة موجزة ، تشير من جهـة إلى فعله على وجه الكمال والاعتدال ، ومن جهة أخرى إلى أدائه على وجه الرواج والدوام . وفي الآيات الأربع من سورتي المؤمنين والمعارج ، ستجد تفصيل هـذا الإيجاز ... ففي سورة المؤمنين ؛ الصفة الأولى : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »(1) ، والصفة الأخيرة : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »(2) . وفي سورة المعارج ؛ الصفة الأولى : « الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ »(3) . والصفة الأخيرة : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »(4) . وهكذا يتحصل لنا في شأن الصلاة عناصر أربعة ، إذا اجتمعت كان صاحبها من مقيمي الصلاة حقاً ، واستحق وعد الفلاح ، الذي صدرت به سورة المؤمنـين : « قَدْ أَفْـلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » . واستوجب التكرمة التي ختمت بها الأوصاف في سورة المعارج : « أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ »(5) .

أما إذا نقص عنصر أو أكثر من هذه العناصر الأربعـة فإنه يزول بذلك شرط أو أكثر ، من شروط هذا الوعد الجميل بل ربما تحول الوعد وعيداً ، وانقلبت المثوبة عقوبة . .

---

(1) الآية : ٢ .
(2) الآية : ٩ .
(3) الآية : ٢٣ .
(٤ و ٥) الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

ألم تسمع مقالة القرآن الكريم في المصلين ، الذين لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ؟ !. وفي المصلين الذين لا تأمرهم صلاتهم بإطعام المسكين وبر اليتيم ؟ : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »(١). فهل وعيت الآن يا بني العناصر الأربعة التي احتوت عليها السورتان ؟.

قال الفتى : ما زلت أراك تحدثني عن عناصر أربعة في هاتين السورتين ، وأنا لا أجد فيهما إلا عنصرين اثنين : عنصر الخشوع في الصلاة ، وعنصر المواظبة عليها .

قال المربي : يا بني لا تعجل بالقول في القرآن ، من قبل أن يقضى إليك تأويله ... قلت لك : إن ها هنا عناصر أربعة ، بعدد الآيات الأربع. وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً :

العنصر الأول - كما علمت - : عنصر الخشوع .. والخشوع في حقيقته حال نفسية تنبع من جذر القلب ؛ مهابة وتوقيراً وتواضعاً وتذللاً ، ثم تفيض على الجوارح؛ غضاً

---

(٦) سورة الماعون : ٤ - ٧ .

وخفضاً وأدباً وسكوناً . ولا يكون هذا وذاك إلا إذا كان المصلي قد قام إلى صلاته وهو يقظ القلب واعي الضمير . شاعر بالموقف الذي سيقدم عليه ، مستشعر جلال من يقف هو بين يديه . فهذا هو رأس العبادة وأول آدابها ، ولكنه ليس كل شيء فيها ، فإن العابد الذي يستولي عليه الشعور بعظمة معبوده ، حتى يذهل عن تلقي خطابه ، ورد جوابه والمحب الذي يستغرق في محبته محبوبه ، حتى لا يدري ما يقول وما يقال له ، لا يصلح لأداء رسالة ، ولا لحمل أمانة . وقصارى أمره أن يرثى له كما يرثى للأطفال وفاقدي الأهلية العقلية ... وإنما العبادة والمحبة تجاوب شعوري يقظ ، وتبادل خطابي واع ، يشهده القلب بدءاً وختاماً ، جملة وتفصيلاً . ألا ترى القرآن الحكيم حين نهى عن قربان الصلاة في حال السكر كيف قال : « حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »[1] . وذلك ليبين علة النهي عن صلاة السكران ؛ وهي أنه لا يعي ما يقول . فمن اكتفى بالخشوع في صلاته عن حضور قلبه في أركانها ، وعن تفهم ما يدور

(١) سورة النساء : ٤٣ .

في أثنائها ، كان بمنزلة النائم والسكران ، وكان حرياً ألا تقع صلاته موقع القبول .

وهكذا وجب أن ينضم إلى عنصر الخشوع عنصر ثان يكمله ويتممه ، ألا وهو عنصر الحضور القلبي المستمر في أثناء الصلاة ، وهذا هو ما أشارت إليه آية المعارج : « الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ »(١) . أي عليها مقبلون ، ولمجرى أقوالها وأفعالها متابعون ، لا ينصرفون عنها بصارف ولا يتشاغلون بشاغل ، ولا يلتفتون عنها بوجوههم ولا بأبدانهم ولا بقلوبهم ...

قال الفتى : رحماك اللهم !. من ذا الذي يطيق هذه اليقظة الدائمة في أثناء الصلاة ؟. إن للقلوب فترات وغفلات حتى الأنبياءُ يسهون وينسون .

قال المربي : إذا كان تشاغل المصلي عن صلاته عمداً وقصداً ، أو كان أوله غلبة ، ثم أصر واستمر عليه ، بعد التنبه إليه ، كان هذا وذاك من قواطع الدوام المطلوب . أما الانشغال اليسير بالخواطر التي لا تملك ، والتي يطاردها

---

(١) الآية : ٢٣ .

المصلي قدر طاقته ، كلما حامت حول قلبه ، فنرجو أن يكون هذا مجال العفو الإلهي ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

قال الفتى : ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . ولتكمل الآن بيانك .

قال المربي : إذا استكملت الصلاة خشوعها ، ودوام حضور القلب فيهـا ، فقد استكملت عنصريها النفسيين ولكنها تبقى في حاجة إلى عنصرين عمليين ، أشارت إليهما الآيتان الأُخريان في سورتي المعارج والمؤمنين : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »[1] ، « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »[2] .

قال الفتى : تالله تفتأُ تسمعنا من حديثك عجباً ! . ها أنت ذا تعود فتعد الشيء الواحد شيئين . أليست المحافظة على الصلاة ، هي المحافظة على الصلوات ؟. فكيف تسميهما عنصرين ؟ ! .

---

(١) سورة المعارج : ٣٤ .   (٢) سورة المؤمنون : ٩ .

قال المربي : أرهف يا بني سمعك ، حتى لا تفوتك هذه الفروق اللغوية . إن المحافظة على الصلاة ، غير المحافظة على الصلوات . المحافظة على الصلاة؛ ألا تتركها ولا تقطعها ولا تنقطع عنها ... أما المحافظة على الصلوات ؛ فهي أن تفرقها على مواقيتها ، ولا تجمع بعضها إلى بعض كأنها صلاة واحدة . إن للروح وجبات من الغذاء ، لو أخرت عن أوقاتها لذبل عودها ، وتصوحت زهرتها : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً »[1] ؛ فريضة مربوطة بأوقاتها ..

تلك يا بني هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر . تلك هي الصلاة التي تطمئن القلوب فيها بذكر الله . ولذكر الله أكبر . تلك هي الصلاة التي لا تنعقد بدونها أخوة المؤمنين: « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ »[2] . تلك هي الصلاة التي هي ردف الإيمان وشعاره : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ »[3] .

---

(١) سورة النساء : ١٠٣ . (٢) سورة التوبة : ١١ .
(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

من صـــفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

الاعراض عن اللغـو

الحمد لله هديتنا للإسلام وحببت إلينا الإيمان . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه وبعد :

قال الفتى : لقد عرفنا من بيانك - أيها المربي الصالح - أن الشعيرة الأولى من شعائر الإيمان ، والخصلة الأولى من خصال المؤمنين ، ليست هي أداء الصلاة بإطلاق ، ولكنها هي أداؤها على وجـه الكمال والاعتدال ، ثم على وجه المواظبة والدوام . وعرفنا أن أداءها على وجـه الكمال لا يتـحقق إلا بشرطين :

الشرط الأول : خشوع القلب فيها لله ، تعظيماً وتوقيراً وتـطامن الجوارح فيها سكينة ووقاراً .

الشرط الثاني : مسايرة الفهم والفكر لما يدور في تضـاعيفـها من القول والعمل ، ومطاردة الخواطر والشواغل

التي قد تلم بقلب المصلي ، فتلهيه عن تدبر أقواله وأفعاله فترة يسيرة من الزمن .

كما عرفنا أن أداء الصلاة على وجه المواظبة لا يتحقق إلا بشرطين :

الشرط الأول : الحذر من تركها والانقطاع عنها جملة .

الشرط الثاني : المحافظة على مواقيتها ، وعدم تجميع بعضها إلى بعض ، في غير رخصة ولا ضرورة .

وعرفنا أخيراً أن هذه الشرائط الأربع – التي فصلتها سورتا المعارج والمؤمنين – قد انتظمتها في جزالة وإيجاز تلك الكلمة القرآنية المشهورة : « وَأَقَامَ الصَّلَاةَ »[1] .

تلك إذاً هي الخصلة الأولى ، قد وعيناها . فهلم بنا أيها المربي الفاضل إلى الخصلة الثانية من خصال المؤمنين : « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ »[2] . ما حقيقة اللغو ؟ . وما كنه الإعراض عنه ؟ .

قال المربي : وهذه أيضاً من الكلمات التي تتسم بطابع الجزالة والإيجاز القرآني . . . فكلمة : « اللَّغْوِ » – في أصل

---

(١) سورة التوبة : ١٨ . (٢) سورة المؤمنون : ٣ .

حقيقتها – تعني كل ما من شأنه أن يلغى ويهمل ويطرح من أقوال وأعمال . وهذا المعنى الوسيع يتدرج على مراتب متفاوتة ؛ من أكبر الكبائر إلى أصغر الصغائر ، إلى الإسراف في بعض الحلال . . .

قال الفتى : لكن اللغو في عرفنا إنما يتناول أدنى هذه المراتب . وإنما يتناول من هذه المرتبة الدنيا مظاهرها القولية لا الفعلية . فكلمة : « اللغو » في عصرنا ؛ إنما تعني فضول القول وحشوه وزوائده ، التي ليس لها خطر ، والتي لا نفع فيها ولا ضرر .

قال المربي : صدقت . وإنه لتعبير عربي صحيح ، ورد به القرآن المجيد: « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ »[1]. ولكننا حتى لو حملناه على هذا المعنى الأخص ، فإننا نجد الآية الكريمة تتناول معه سائر المعاني والمراتب ، إن لم يكن بمنطوقها وحرفيتها ، فبمفهومها ودلالتها . . .

قال الفتى : كيف ذلك ؟.

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٥ .

قال المربي : أرأيت حين نهى الله عن قربان الزنا ، أكان ذلك نهياً عن القــرب منه فحسب ، وإذناً بالوقوع فيه نفسه ؟!. أرأيت حين نهى الأبناء أن يقولوا لوالديهم : « أفٌّ لَكُمَا »[1] . أكان ذلك إذناً بشتمهما وضربهما ؟!. إن هذا كله تنبيه بالأدنى على الأعلى . فإن من تعفف عن مقدمات الزنا ، كان عن الزنا نفسه أشد تعففاً . ومن تـأثـم من التـأفف من والديه ، كان من إيذائهما أشد تـأثماً . وكذلك من تحرّج عن فضول القول وزوائده ، كان عن قول الزور والعمل به أشد تحرجاً . فشيمة المؤمن الإعراض عن هذا وذاك . والتنويه بإعراضه عن التوافــه والصغائر تنويه بإعراضه عن الكبائر بالأحرى . وهكذا جعلت الآية من خصال المؤمنين ؛ أنهم يعرضون عن اللغو كله ، دقه وجلّه . . .

قال الفتى : قد فهمنا الآن حقيقه اللغو في خصوصها وفي عمومها . وعرفنا أن الإعراض عن خصوصها ، إعراض

(١) سورة الأحقاف : ١٧ .

بالأولى عن عمومها . فما كنه هـذا الإعراض ؟. وهل تـختلف صوره ، وتتفاوت أساليبه ؟.

قال المربي: نعم تـختلف صوره وتتفاوت أساليبه ، تبعاً لاختلاف نوع اللغو ، الذي ينبغي الإعراض عنه . فهناك لغو يعرض عنه أرباب الوقار والحجا ،لا لحرمته في أصله ولكن تسامياً بـأنفسهم عن مستوى الدهماء . وهناك لغو يعرض عنه الحلماءُ ، كرماً وتنزهاً عن مجاراة السفهاء . وهناك لغو يعرض عنــه الحافظون لحدود الله ؛ مهاجرة ومقاطعة لمن يتعدون حدود الله . فالإعراض عن اللغو إذاً ؛ إما إعراض عن فعله ، وإما إعراض عن أهله ؛ والإعراض عن أهل اللغو : إما إعراض صفح وغفران ، وإما إعراض مقاطعة وهجران . وكل ذلك مفصل في القرآن الحكيم .

قال الفتى : بيّن لنا هذه بياناً شافياً .

قال المربي : أما اللغــو الذي يعرض عن تناوله أرباب الوقار والحجا ، لا لحرمته في أصله ، ولكن تسامياً بـأنفسهم عن مستوى الدهماء ، فذلك ــ وا أسـفـاه ــ هو أكثر ما يخوض الناس فيه ، إذا جلس بعضهم إلى بعض ؛ تنقلاً

بين حديث معاد ، وخبر مردد ، وتكهنات وظنون وضحك ومجون .. وهذا اشتغال بما لا يعني ، وملء لفراغ الوقت بما لا يجدي ، كما قال الله تعالى : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ »[1] .. يا بني ، إن اللهو المباح إذا أُخذ بقدر معلوم ، ترويحاً للنفس من عناءِ العمل ، وتأهباً لاستئناف النشاط والجد ، لم يكن بالمؤمن بأْس أَن يلم به إلماماً ، وأَن يلجأَ إليه استجماماً ، كما يروى عن علي - رضي الله عنه : روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإنها إذا كلت عميت . وعن أَبي الدرداءِ أَنه كان يقول : إني لأَستجم نفسي بشيءٍ من اللهو ، فيكون عوناً لي على الحق ا.هـ. غير أَن العكوف عليه والإسراف فيه ، واتخاذه شغلاً لا ترفيهاً وغذاءً لا فاكهة ، قلب لأَوضاع الأُمور ؛ وذلك شأْن أَهل البطالة لا أَهل البطولة . فالمؤمن له من شواغل الجد ما يصرفه عن أَكثر هذا الهزل . والإعراض عن هذا الضرب من اللغو هو الذي وصف الله به عباده المؤمنين ، حيث يقول : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً »[2] . كرّموا أَنفسهم عن

---

(١) سورة النساء : ١١٤ .
(٢) سورة الفرقان : ٧٢ .

الخوض فيه ، وسمحت نفوسهم بترك نصيبها منه . وهكذا علمتنا الحكمة النبوية ، أن كثرة الضحك تميت القلب وأن من حسن إسلام المرء تركه لما لا يعنيه . بل شأن المؤمن في مزاولته لما يعنيه من الشؤون ، أن يتجنب الإسراف في قوله وفعله ؛ يتجنب الحشو والسقط ، والكركرة والثرثرة . إذا قال أوجز ، وإذا بلغ حاجته لا يتكلف . كما قال الله تعالى في وصف نبيه الكريم : « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ »[1].

وأما اللغو الذي يعرض المؤمنون عن أهله ، إعراض حلم وصفح ، تنزهاً عن مجازاة السيئة بمثلها ، فذلك هو ما قد يصيبهم من جهالة الجهلاء ، وحماقة الحمقى ، وسفاهة السفهاء ، فلا يجهلون عليهم كما جهلوا ، ولكن يحتملون أذاهم ، ويغضون عن سفاهتهم ، فيزدادوا بذلك رفعة عند الله وعند الناس ، كما قال الله تعالى : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »[2] . وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن الكريم في قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

---

(١) سورة ص : ٨٦ .
(٢) سورة آل عمران : ١٨٦ .

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً».[1] وقوله: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ»[2] .

وأما اللغو الذي يعرض المؤمنون عن أهله إعراض مهاجرة ومقاطعة ؛ فذلك هو كل باطل تنتهك به حرمة من حرمات الله ، أو يعتدى فيه على حق من حقوق الغير . وهذا هو الذي قال الله فيه : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »[3] . وهذا هو أول باب من أبواب النهي عن المنكر ، الذي هو من صفات المؤمنين : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُون بِاللهِ »[4] .

---

(١) سورة الفرقان : ٦٣ .
(٢) سورة القصص : ٥٥ .
(٣) سورة الأنعام : ٦٨ .
(٤) سورة آل عمران : ١١٠ .

من صـــفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

ايتاء الزكاة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ونشهـد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد :

قال الفتى : قبل أن تنتقل بنا أيها المربي الحكيم ، إلى الخلة الثالثة من خلال المؤمنين ، نحب أن تبين لنا نوع الصلة المعنوية ، أو العلاقة التربوية ، بين الخلتين الأوليين ؛ بين الخشوع في الصلاة ، وبين الإعراض عن اللغو ، بمعناه الوسيع الذي عرفناه . فلو كان المقصود هو الإعراض عن اللغو في الصلاة ؛ بترك الالتفات فيها ، وعدم الاشتغال في أثنائها بشيء من خارجها ، وعدم العبث فيها بالجسد أو بالثياب أو بغيرها ، إذاً لقلنا : إنها صفة متممة لصفة

الخشوع . فإن من خشع قلبه في الصلاة سكنت جوارحه وانصرف عن العبث فيها بقوله وفعله . لكن أي علاقة بين الخشوع في الصلاة، وبين ترك العبث في خارج الصلاة؟.

قال المربي : يا بني . لو كان معنى الإعراض عن اللغو هنا ، هو الإعراض عن العبث في الصلاة فحسب ، لقال الله تعالى : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ».[1] والذين هم فيها عن اللغو معرضون!!. أما وقد مدح الله المؤمنين - بإعراضهم عن اللغو - مدحاً غير مقيد بحال الصلاة فالمعنى أن ذلك الخلق الرفيع هو شأن المؤمنين في كل أقوالهم وأعمالهم وسائر حالاتهم . ويبقى النظر في سؤالك عن الصلة بين هذا الخلق وبين الخشوع في الصلاة ؛ فتلك مسألة قد تختلف فيها وجوه النظر ، وتتشعب فيها مناحي الذوق ، تبعاً لاختلاف طرائق التفكير والشعور ، وما ينشأ عنها من عادات نفسية مختلفة في تداعي المعاني . والذي أراه هو أن بين عادة الخشوع في الصلاة ، وعادة الإعراض عن اللغو بإطلاق ، رباطاً نفسانياً وتسلسلاً طبيعياً ، تتولد

(١) سورة المؤمنون : ٢ .

به أُخراهما عن أُولاهما ؛ كما تتولد الثمرة عن الشجرة .

قال الفتى : كيف ذلك ؟ .

قال المربي : ألا ترى أن من تعوّد مجالسة أهل الوقار والحكمة ، نبا به طبعه عن مجالس الحمقى ، وتجافى لسانه وسمعه عن فضول السفهاء ؟ . فما ظنك بمن تعوّد الموقف الكريم أمام أعظم العظماء ، وألفت نفسه مناجاة أحكم الحكماء ؟ . إن من ذاق حلاوة هذه المناجاة ، وأشرب قلبه حبها ، وتعوّد الخشوع في مواقفها ، كان جديراً أن يتكون في نفسه خلق التعلق بمعالي الأمور ، والإعراض عن لغوها ، والبعد عن سفاسفها ، إلا اللمم . وصدق الله تعالى : « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ »[1] . فليست كل مهمة الصلاة أنها توجُّه روحي ، يؤدي به المرءُ واجب الوفاء لحق المنعم ، ويعبّر به عن شعور المحبة له ، والحياء منه ، والشكوى إليه ، والأمل فيه . ولكنها في الوقت نفسه - بما فيها من عادة التوجه إلى المثل الأعلى - تدريب عملي على التعلق بالمثل العليا ، والترفع عن الخطط الدنيا . فكأنه قيل

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .

في وصف المؤمنين : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[1] . والذين انتفعوا في حياتهم بهذه الصلاة الخاشعة ، فكانت لهم صلة مستمرة بالحق ، وشغلاً صارفاً عن الباطل واللهو كما قال الله تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[2] . وكما قال : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ »[3] . فاقتران الوصيتين هناك يفسر لك سر اقتران الصفتين ها هنا .

قال الفتى : إذا استطعنا أن نفسر بهذا سر النقلة بين الخشوع في الصلاة وبين الإعراض عن اللغو ، وأنه ترقٍّ من الفضيلة الروحية إلى ثمرتها الخلقية العملية ، فكيف نفسر الصلة بين هذا الفرع العملي ، وبين الأصل الثاني من أصول الشريعة ؛ وهو إيتاءُ الزكاة ؟ . ليت شعري .

(١) سورة المؤمنون : ٢ . (٢) سورة الكهف : ٢٨ .
(٣) سورة طه : ١٣٠ ، ١٣١ .

كيف ساغ المجيءُ بهذا الفرع ـ فاصلاً معترضاً ـ هكذا بين الصلاة والزكاة ، وهما القرينتان في كتاب الله ؟!.

قال المربي : إن خلق الإعراض عن اللغو ـ هذا الخلق العملي ، الذي يبدو لك فاصلاً معترضاً بين الصلاة والزكاة ـ يلوح لي بالعكس ؛ إنه هو المعبرة والقنطرة وحلقة الاتصال بين الصلاة والزكاة .

قال الفتى : فسِّر لنا ذلك .

قال المربي : أتدري ما هي العوائق النفسية ، التي تثبط الناس عن بذل أموالهم ، وإنفاقها طوعاً واختياراً في مرضاة الله ، وإصلاح الجماعة ؟. إنها لا تعدو أحد سببين : إما حب المال لذاته ، فرحاً بجمعه واكتنازه ، واعتزازاً بكثرته ووفرته . وإما حب المال ، لا لذاته ولكن لأنه مطية المرء لنيل متعه ومشتهياته ... نزعتان مفترقتان في البداية ولكنهما تلتقيان عند النهاية ... تفترقان في البداية ؛ إحداهما تدعو إلى البخل والتقتير ، والثانية تدعو إلى الإسراف والتبذير . ولكنهما تلتقيان عند النهاية في خلق الأنانية ، التي تقيس الأُمور كلها بمقياس المنفعة الفردية

لصاحبها . . إن بذل فلمتعة نفسه وكفى ، وإن بخل فلمتعة نفسه وكفى . . وتلتقيان قبل ذلك في النظر إلى هذه المتع العاجلة ، من خلال عدسة مكبرة ، تغري بالجد في طلبها عند فقدها ، وبالحرص عليها والضن بها بعد نيلها . . . أتدري كيف عالج القرآن هذه الأعراض والأمراض ؟ . إنه عالجها من أساسها ، ومن أبعد أعماقها . . عالج نظرتنا إلى الحياة نفسها ، علاجاً يرفع عن الأبصار غشاوتها ، ويبطل سحر المادة وخديعتها . . يقول الإنسان : مالي . . مالي . أعطي منه كما أشاءُ وأمنع . . . أهو في الحق مالك ؟!. إنه لله من قبل ومن بعد.. من قبل ؛ حين جئت إلى الدنيا فرداً . ومن بعد ؛ حين تخرج منها فرداً . . « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ »[1] . ثم هو فيما بين ذلك لله ، وإنما جعلك فيه وكيلاً متصرفاً : « وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ »[2]. ثم إنه لم يخوله لك حقاً خالصاً ، بل جعل لك فيه شركاءَ ، أسهم لهم فيه معك بنصيب : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

(١) سورة الأنعام : ٩٤ . (٢) سورة الحديد : ٧ .

لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »(١) ، هبه لك حقاً خالصاً ، فماذا يكون بعد جمعه والاستمتاع به ؟!. : « الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كلاَّ . . »(٢) . وهؤلاء المسرفون في لذائذهم ، المنهومون في طلبها : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ »(٣) . . خـــذ إذاً من هذا المال قدر ما تـأْكل وتفني وقدر ما تلبس وتُبْلي ، وقدر ما تسكن وتـأْوي . خذ قدر حاجتك وحاجة من تعول . . أمـــا فواضل المال وزوائده أما زكاته ونماؤه ، أما متع الحياة الفانية ، وزخارفها البالية فالحرص عليها حرصاً يضيع حق الله فيها ، حرص على عبث باطل ، وتشبث بسراب زائل . . هذه المعاني القرآنية وأشباهها ، هي المنظار السليم الذي وضعه القرآن أمام أعيننا لكي نقيس الأُمور بمقاييسها ، ونرد الأَشياءَ إلى حقيقة قيمها ومقاديرها . ومن تدبر هذه المعاني حق تدبرها ، وجد فيها العلاج الناجع ، الذي يذهب عن النفوس حرصها

(١) سورة الذاريات : ١٩ . (٢) سورة الهمزة : ٢ — ٤ .

(٣) سورة الشعراء : ٢٠٥ — ٢٠٧ .

وكزازتها ، ويفك عن الأنامل قبضها وجمودها ... ألا وإن هذه المعاني وأكثر منها ، قد جمعها القرآن ها هنا في كلمة واحدة : « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ »[1] ، وتلك هي التي وطأت ومهدت للتحلي بالحلية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ »[2] .. هكذا ترى يا بني ، أن الفضيلة الأولى الروحية ، كانت هادية إلى فضيلة خلقية . وأن هذه الفضيلة الخلقية كانت سائقة إلى فضيلة اجتماعية .. فضائل متناسلة ، بعضها من بعض .. يا بني ، إن القرآن ليس معلم أخلاق فحسب ، ولكنه مربي أرواح ، وبنّاء نفوس ، ومنظم شعوب . يجيء إلى كل فضيلة من بابها ويمهد لها أسبابها وأسباب أسبابها : « أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ »[3]

قال الفتى : بلى ، هو أحكم الحاكمين .

(۱ و ۲) سورة المؤمنون : ۳ ، ٤ .   (۳) سورة التين : ۸ .

من صـــفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

العفـــة

اللهم لك الحمــد على آلائك . ونشكرك على جزيل عطائك . ونصلي ونسلم على سـيد أنبيائك ، وعلى آله وأصحابه . وبعد :

قال الفتى لمربيه : ها أنت ذا قد عرضت علينا مشكوراً خصالاً ثلاثاً ، من خصال الإيمان التي صدرت بها سورة المؤمنين : الخشوع في الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، وإيتاء الزكاة . . . فحدثنا الآن ـ إن شئت ـ عن الخصلة الرابعة : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ »[1] .

قال المربي : هــذا هو خلق العفة ، وصيانة النطفة وضبط الغريزة الجنسية ، والتحكم في جموحها ونزواتها . . خلق ما برح العرب يتمادحون به في الجاهلية والإسلام ، إذ

---

(۱) سورة المؤمنون : ٥ .

كانوا يعدون طهارة الذيل والسراويل ، من ألقاب المدح والثناء فيما بينهم . ثم مازلنا نري العقلاء في كل عصر وفي كل قطر ، ينظرون إلى المتصونين المتعففين نظرة إكبار وتكريم ، بينما يمقتون ويزدرون أُولئك الذين تستعبدهم أهواؤهم ، وينفلت من أيديهم زمام شهواتهم ، بل قد نرى الرجل المتحلل من قيود هذه الفضيلة ، إذا خلا بنفسه وثاب إلى رشده ، مقت نفسه وازدراها ، وقال : يا ويلي . لقد جئت شيئاً نكراً .

قال الفتى : ما سر هذه النظرة الماقتة ، التي ينظرها الناس هكذا ، إلى من يقضي نهمته الطبيعية ، حتى في البيئات التي لا تنتمي إلى دين محرِّم ، ولا تخضع لقانون ملزم ؟!. ما سر هذا الكبت الذي تفرضه الشرائع والأديان على هذه النزعة المرتكزة في فطرة الإنسان ، ارتكاز شهية الطعام والشراب ؟!. وإذا كان الإسلام دين الفطرة ، فلماذا يقاوم ويحارب هذه الفطرة ؟!.

قال المربي : أما أن الضمير الإنساني يستنكر الانطلاق من هذه الغريزة ، فاعلم يا بني - قبل كل شيء - أن

الفطرة الإنسانية غير الفطرة الحيوانية .. الإنسان مجموعة من الغرائز والميول والقوى والملكات ، يقيد بعضها بعضاً ويحد بعضها بعضاً ، في ضوء الفكر الذي يقوم بالموازنة بينها ، وتحت قيادة الإرادة التي تتولى تنسيقها ، بحيث تتعاون وتتساند ، ولا يبغي بعضها على بعض . فإذا انطلقت إحدى هذه الغرائز عند امرئ ؛ انطلاقاً يخضع إرادته ويتمرد على أوامر عقله ، فقد تعطلت فيه خاصة الإنسان ؛ خاصة العقل الذي جعله الله عقالاً للهوى ، وبرزت فيه طبيعة الحيوانية ، طبيعة الغريزة المتحكمة التي لا عقال لها . فأي وجدان سليم يطيب له أن يرى حيواناً في ثوب إنسان ؟!. وياليت الأمر يقف به عند هذا الحد ؛ يفقد قيمته الإنسانية في نفسه ، دون أن يتعدى شره وضرره إلى غيره .. ولكنه بهذا المسلك المنحرف يترك في أسرته ، وفي جماعته ، وفي أمته ، وفي البشرية عامة آثاراً بشعة شنيعة .

إن الشخص الذي تستعبده هذه الشهوة ، هو في غالب الأمر أناني ، جـد أناني .. يستبيح لنفسه ما لا يبيحه لأهله وعشيرته .. إنه يرضيه أن يثلم أعراض الناس ، ولكنه

لا يطيق ، ولا يكاد يتصور ، أن يثلم أحد عرضه . . . يحسب المفتون – حين يقتنص لذائذه في غفلة من أهله – أنهم لن يقتنصوا كذلك لذائذهم في غفلة منه . . . ولكن القصاص العادل لا يلبث أن يدينه كما دان ، من حيث يشعر أو لا يشعر، جزاءً وفاقاً .. هكذا مضت المثلات ، وهكذا روي في الحكمة النبوية : (عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ . وَبَرُّوا آبَاءَكُمْ ، تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ) . . ناهيك بما يتركه الرجل العربيد بين قرنائه ، من أسوة سيئة تحرضهم على الرذيلة وتغريهم بها ، ثم بما قد يتبع ذلك من تنافس بينهم عليها وتدافع عنها ، ثم بما يورثه هذا التنافس والتدافع ، من ضغائن وأحقاد ، قد ترخص فيها الأرواح وتسفك فيها الدماءُ . يا بني . إن هذه الرذيلة إذا انتشرت في أمة أنهكت قواها المادية والمعنوية ، فتفشت فيها الأمراض الخبيثة وسقطت همتها ، وتحولت أهدافها من المثل العليا ، إلى الشهوات الدنيا ، وهنالك تكون بداية نهايتها ، فلا تلبث أن تقع فريسة في أيدي أعدائها . . « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا

تَدْمِيراً »(١) . ولا تنس أخيراً ما يصيب النوع البشري في جملته من تدهور ، إذا أخذ عدده يتناقص من جرّاء هذا الانحلال ؛ ذلك أن كل جنين يتولد عن هذه الرذيلة محكوم عليه – في كل مرحلة من مراحله – بالفقد والضياع ، فإن ترك ليعيش ، عاش شريداً طريداً أو محقَّراً زنيماً . أليس هذا هو ما أشار إليه القرآن الحكيم ، حين وضع رذيلة الزنا بين نوعين من القتل : قتل الولد ، وقتل النفس ؟ . فكان ذلك تنبيهاً على أنه ضرب من الوأْد أو ذريعة إليه .. قل لي بربك إذاً ؛ كيف لايستنكر الإنسان فعلة ، هذه بعض آثارها في الفرد ، وفي الأُسرة ، وفي الجماعة ، وفي الأُمة وفي البشرية عامة ؟!. كيف تستسيغها النفوس ، حتى لو لم يكن هنالك دين زاجر ، ولا قانون رادع ؟!. وهل جاءت الأديان والشرائع هنا ، إلا إقراراً وتثبيتاً لحكم الوجدان الحي ، والعقل السليم ؟ .

يا بني . لا تسمِّ الحظر والتحريم ها هنا كبتاً للفطرة أو محاربة لها ، ولا تسمه حرماناً من زينة الدنيا ومتاعها .

---

(١) سورة الإسراء : ١٦ .

إنه تنظيم وتنسيق للفطرة، وتصفية وتهذيب للمتعة، لكي يتناولها الناس سائغة خالصة مما ينغصها ويكدرها: «مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»(١). «يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً»(٢).

ثم اعلم يا بني، أنه ليس في الدنيا لذة ولا منفعة، يمكن الوصول إليها عن طريق غير مشروع، إلا وقد رسم الله طريقاً حلالاً، وسبيلاً مشروعاً لتحصيل مثلها.

قال الفتى: وما السبيل المشروع في موضوعنا؟.

قال المربي: هو ما بيّنه القرآن الحكيم حين يقول: «إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ»(٣).

قال الفتى: ليت شعري، أي فرق عملي بين الزواج والمخادنة؟!. أليست هي كلمة تقال، فيكون نكاحاً مباحاً أو لا تقال، فيكون سفاحاً محرماً؟!. أفليس هذا هو التحكم بعينه؟!.

---

(١) سورة المائدة: ٦.
(٢) سورة النساء: ٢٨.
(٣) سورة المؤمنون: ٦.

قال المربي : لقد جانبك الصواب في هذا التفكير ، وفي هذا التعبير .. كلا يا بني ؛ إنها ليست فروقاً وضعية . ولكنها اختلاف في معدن الأشياء وطبيعتها . فالمخادنة متعة حيوانية ، وقضاء لبانة وقتيـــة ، إنها اختلاس وخداع وهروب من المسؤولية . إنها امتهان لكرامة الإنسان من الجانبين . أليس كل منهما يتخذ صاحبه وسيلة لا غاية ؟ . فلا يعنيه من أمر صاحبه إلا أنه قنطرة لنيل مآربه ...

أما الزواج ، فإنه شهامة وعزيمة وتبادل كرامة ، إنه احتمال مسؤوليات ، والتزام حقوق وواجبات . إنه إنشاء وتعمير لا إضاعة وتبذير . إنه تركيز للمجهود بتحديده ، لا تبديد له بنشره وتفريقه . ومن هنا حدد القرآن الكريم مجال الزواج وضيق حدوده ، فمنع العاجزين عن تحمل أعبائه ومسؤولياته : « وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »[١] . ثم وصّى بألا يزيد الرجل على زوجة واحدة ، عند خوف الجور : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »[٢] .

---

(١) سورة النور : ٣٣ .　　(٢) سورة النساء : ٣ .

قال الفتى : « فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . أرجو أن تغفر لي سوءَ التعبير مرة أُخرى إذا قلت لك : إن القرآن بعد أن عالج انطلاق هذه الغريزة ؛ بمنع السفاح والمخادنة ثم بتحديد الزواج وتقييده ، عاد فأطلقها من ناحية أُخرى حين أباح لنا التسري بما ملكت أيماننا ، دون حد ولا عدد ولا قيد ولا شرط ، فما سر هذا الإطلاق ؟.

قال المربي : اعلم يا بني ، أن السيد إذا استولد أمته أصبح أولادها منه أحراراً ؛ لأن الولد لا يكون عبداً لأبيه وأصبحت الأَمَة نفسها حرة بعد موت سيدها . فتشجيع السادة على استيلاد إمائهم ، دون تحديد بعدد ، معناه الحث على وقف تيار الرق ، وفتح باب الحرية للأرقّاء . وما هذه إلا حلقة من سلسلة من التشريعات ، التي اتخذها الإسلام لقطع دابر الاستعباد ، الذي كان منتشراً في كل الأقطار متوارثاً عند كل الشعوب .. وهي تشريعات ترمي في جملتها إلى إخراج العالم كله من سجن العبودية ، إلى فضاء الحرية . حقاً إن الإسلام هو محرر البشرية ..

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مسئولية التابع والمتبوع

الحمـد لله الذي خصّنا بكتابه ، وشرّفنا بخطابه . والصلاة والسلام على من دلنا على الله ، وبلغنا رسالة الله .. سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار وسلم تسليماً كثيراً . وبعد :

هذه قضية من قضايا المسئولية الأخلاقية ، نعرضها ممثلة في محاورة بين معلّم ثبت ، ومتعلم متثبت :

قال المربي : هل تعرف يا بني ، أن كل امرىء منا مسئول إلى حد بعيد ، لا عن عمله فحسب ، ولكن عن عمل غيره كذلك ؟ .

قال الطالب : عن شريعة الحق وحكم الإسلام تتحدث ؟. أم عن حكم الجاهلية الأولى ، الذي يؤخذ فيه الجار بجرم الجار ؟ .

قال المربي : بل عن حكم الإسلام ، وفي صميم القرآن !

قال الطالب : كيف هذا ، ونحن نقرأ ونسمع كل يوم أن المسئولية في الإسلام محدودة محددة ، وأنها أبداً مسئولية فردية ، لا تجاوز العامل إلى غيره ؟ . . وكيف والقرآن نفسه يقول : « لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ »[1] ، « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »[2] ، « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »[3] ، « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ »[4] ، « أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »[5] ، « لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا . وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ »[6] ، « مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ . وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ »[7] ، « فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ »[8] ، إلى نصوص أخرى كثيرة مشهورة .

قال المربي : يا بني ، إن هذا كله لا يضيرنا .. إنهما حقيقتان لا ينقض بعضهما بعضاً ، ولكن تكمل إحداهما

---

(١) سورة النساء : ٨٤ .
(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ .
(٣) سورة البقرة : ٢٨٦ .
(٤) سورة الشورى : ١٥ .
(٥) سورة يونس ٤١ .
(٦) سورة سبأ : ٢٥ .
(٧) سورة الأنعام : ٥٢ .
(٨) سورة النور : ٥٤ .

الأخرى . وذلك أننا لن نحاسب على ما يفعله غيرنا ، إلا إذا كان لنا فيه مدخل ما ، من قريب أو بعيد .

قال الطالب : هل تقصد من ذلك ، أنه إذا كان عمل الغير مسبباً عن عملنا ، نكون نحن مسئولين عن فعلنا الذي كان سبباً في ذلك العمل ؟. إن كان هذا هو مغزى القضية فنحن أبداً مسئولون عن عملنا وحده ، لا زائد .

قال المربي : ليس ذلك فحسب ، والتعبيران ليسا سواءً. إن ها هنا بعداً شاسعاً بين أن تحاسب على شيء واحد ، هو فعلك ، وبين أن تحاسب على شيئين اثنين ؛ على فعلك الذي كان سبباً في فعل غيرك ، وعلى الفعل الذي صدر عن الغير ، من جراء فعلك ... يا بني إن عملك المباشر حركة معينة ، لها صورة محصورة ، محدودة بنطاق زمانها ومكانها وملابساتها . ومهما تتكرر هذه الصورة فإنها لن تجاوز مجال حياتك.. أما عمل غيرك فإنه يمتد طولاً وعرضاً حتى يستغرق الأشخاص ، ويستوعب الأجيال ، وقد يدوم ما دام الناس يمشون على الأرض ... فإن كنت تظن ، أنه لا يحسب عليك إلا عملك في صورته الضيقة المحدودة ، فما

قدّرت عدالة الله حق قدرها ، ولا عرفت دقة موازينها . . .
إن الله لا يقيس الأعمال بمقياس مادتها وحدها ، ولا يحدد
مدتها بساعة مباشرتها ، ولكنه يقيس إلى ذلك صداها
وإشعاعها ، ومدى تكرّرها وتجدد أمثالها . ألا تسمع إلى
قول الله – عز وجل – : « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ »[1] ؟.
فهذا إرشاد بيِّن إلى أن مسئوليتنا لا تقف عند حدّ أعمالنا
المباشرة ، بل تجاوزها إلى آماد بعيدة ، حتى تتناول كل
ذيولها وأعقابها ، وكل أصدائها وآثارها ، في حياتنا وبعد
موتنا . . . يا ليتنا يا بني نتدبر هذا حق تدبره ، قبل أن
نقدم على أعمالنا !. إذاً لكان لنا منه نعم النازع ، إلى فعل
الخير ولو يسيراً ، فلا تحقر منه مثقال ذرة ، ولكان لنا منه
نعم الوازع ، عن فعل السوء ولو قليلاً ، حتى لا نتهاون منه في
مثقال ذرة ، فربَّ حسنة أو سيئة كانت صغيرة في نفسها
ولكنها كبرت وعظمت بما كان لها من أثر ، وما نجم عنها
من نفع أو ضرر . . ألا ترى أن ترويج قطعة صغيرة جداً
من النقد الزائف ، قد يكون أمراً هيّناً في نفسه ، ولكنه

(١) سورة يس : ١٢ .

إذا بقي جرم هذه الجريمة ، واستمر تداولها بين الناس كانت جملة الصفقات الباطلة التي عقدت عليها ، وجملة السحت الذي أُكل بها ، أَشنع وأَفظع ، من سرقة قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ؟.

قال الطالب : هذا حق . ولقد كنت أفهم من كلمة الكتاب العزيز : « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » . أَن الآثار التي تكتب في صحائف أَعمالنا إنما هي الآثار التي ينطبق عليها هذا المثل ، أَعني الآثار التي تكون امتداداً حقيقياً لأَعمالنا ، والتي تبقى فيها مادة صنعتنا ، من علوم نافعة نخلفها وراءنا ، وصدقات جارية نورثها لمن بعدنا ، ومنشآت صالحة يسري نفعها ويمتد برّها ما دامت قائمة . وكذلك في الجانب المقابل ؛ ما كنت أَعد إلا أَثراً يبقى به جرم الجريمة ماثلاً ، في نقد زائف ، أَو بضاعة مغشوشة ، أَو اختراع مدمّر ، أَو ما إلى ذلك ... فهذا كله وأَمثاله جدير بأَن يعدّ من عمل العامل نفسه ، وليس بدعاً أَن يضاعف له أَجره أَو وزره كلما تكرر نفعه أَو ضرره ... أَمّا أَن يعمل الغير بسببنا عملاً من البر أَو الإِثم ، منفصلاً عن

عملنا ، ثم نشاركه في أَجره أَو وزره ، مضافاً إلى جزاءِ عملنا ، فهل نجد لذلك شاهداً في القرآن الكريم ؟ .

قال المربي : نعم . إننا نجد له شواهد كثيرة ، أَكثر مما قد يظن ، وعلى نطاق فسيح ، أَوسع مما قد يحتسب .

قال الطالب : هل لك في أَن تعرض علينا نماذج من ذلك ؟ .

قال المربي : سأَفعل إن شاء الله ! ولأُعجل لك الآن بهذا المثال الواضح القريب : اقرأْ إن شئت قول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[1] . أَتدري ما الأَثقال التي يحملونها مع أَثقالهم ؟ . إنها مفسرة في الآية الأخرى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[2] . فهم يحملون أَوزارهم كاملة ، من أَعمالهم المباشرة ، ثم يحملون فوق ذلك نصيباً من أَوزار أَتباعهم ، لا على معنى أَنهم يخففون

(١) سورة العنكبوت : ١٢ ــ ١٣ . (٢) سورة النحل : ٢٥ .

عن الأتباع نصيباً من جزائهم ، فالآية صريحة في عكس ذلك ، إذ تقول : « وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ »[1] ، وإنما المعنى أن المتبوعين تجتمع لهم عقوبتان : عقوبة على فعلهم ، وعقوبة على فعل أتباعهم الذين كانوا هم سبباً فيه ، بأمرهم ونهيهم أو بإيحائهم وإغرائهم .

وهكذا كل دعـاة السوء ، ينالهم كفل من وزر الفعل الذي أغروا الناس به وحرضوهم عليه .

كما أن دعاة الخير ، ينالون نصيباً من أجر البر الذي رغَّبوا فيه ودعوا إليه ، فإن الدال على الخير كفاعله .

جعلنا الله وإياك هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلِّين .. آمين .

(١) سورة العنكبوت : ١٢ .

مسئوليات أدبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مسئولية الضعفاء والمستكبرين

الحمد لله الذي جعل قوله قولاً فصلاً ، وحكمه حكماً عدلاً . وأفضل الصلاة وأتم السلام على محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله ، وعلى آله وصحبه أزكى الصلاة والسلام وبعد :

قال المربي لتلميذه وهو يحاوره في أنواع من المسئوليات الأدبية :

ـ هل عرفت الآن يا بني ، أننا مسئولون عن فعل غيرنا ، متى كان الغير قد عمل بأمرنا أو بإيحائنا ؟ .

قال الطالب : نعم . لقد عقلت هذا المثال .

قال المربي : هذا هو الضرب الأول من مسئولياتنا عن فعل الغير .

قال الطالب : أرجو ألا تتعجل بالانتقال إلى نوع آخر حتى أكاشفك بما يجول في خاطري عن هذا النوع الأول ؛

لقد كنت أظن من قبل أن الفاعل المباشر للإثم هو الذي يجب أن يبوء وحده بالإثم كاملاً ، وألّا يسأل معه أحد غيره . ولكني حين سمعت مقالة القرآن الحكيم في شأن دعاة السوء : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[1] . تحوّل موقفي من النقيض إلى النقيض ، فأصبحت الآن أرى أن المسئولية هنا على الآمر ، لا على المباشر ، وعلى المتبوع لا على التابع . أليس من العدل أن المتبوعين ذوي النفوذ والسلطان هم الذين يحملون وزرهم ووزر أتباعهم كاملين ؟ ! أوليس من القسوة أن نحمل أتباعهم تبعة ما فعلوه امتثالاً للأمر القاهر ؟. نعم . ما ذنب هؤلاء الضعفاء الذين لم يقترفوا الإثم عن طوع ورغبة واختيار ولكن عن إكراه وإلجاء واضطرار ؟. أليس كتاب الله يقول : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ »[2] ، « إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ »[3] .

قال المربي : حذار يا بني أن تسمي أمر الرئيس لمرؤوسيه إكراهاً يخرج المرؤوس عن إرادة نفسه ، ويُبرئه

(١) سورة العنكبوت : ١٣ .   (٢) سورة النحل : ١٠٦ .

(٣) سورة الأنعام : ١١٩ .

من تبعة فعله . فتلك دعوى لا تقرّها دساتير الأرض ، ولا دستور السماء . أما دساتير الأرض ، فإنها تعلن في صراحة لا لبس فيها ؛ أن أوامر الرؤساء ـ كتابية كانت أو شفاهية ـ لا تعفي المرؤوسين من مسئوليتهم عن مخالفة القانون . وأما دستور السماء ، فإنه أبطل كل حيلة حاول بها المستضعفون أن يتنصلوا من ذنبهم بضعفهم ، ودحض كل حجة احتجوا بها لإلقاء التبعة كلها على كاهل كبرائهم: « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ : يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ »(١) . « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ قَالَ

---

(١) سورة سبأ : ٣١ ـ ٣٣ .

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »[1] . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ »[2] ، قال الحكم العدل : « وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »[3] . هكذا ترى يا بني ، أن الاعتذار بطاعة الرؤساء ، وامتثال أمر الكبراء ، فيما لا يرضي ربنا الأعلى اعتذار بما لا يُقبل ، وأن المستعتب به غير معتب .

قال الطالب : ولِم ذلك ؟. أليس هذا ضرباً من الإكراه ؟!.

قال المربي : يا بني إن قوى الأرض كلها لو تظاهرت علينا بأمرها وإغرائها وإنذارها وتهديدها ، لتدعونا إلى خير أو شر ، ما كان ذلك كله ليسلبنا إرادتنا ، أو يلقي عنا تبعاتنا ، ما دام فينا عقل يفكر ويوازن ويحكم ، وما دام لنا سلطان على جوارحنا نصرّفها نحن باختيارنا ،

---

(١) سورة غافر : ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) سورة الأحزاب : ٦٦ ـ ٦٧ .
(٣) سورة الزخرف : ٣٩ .

وليست هي التي تتحرك بنفسها حركة آلية ، أو يحركها غيرنا حركة قسرية . فما دمنا نستمتع بهذا القسط من الوعي والضبط ، فنحن مسئولون عن عقائدنا وعن أعمالنا على الرغم من كل الأوامر والنواهي التي تحاول أن تغير وجهتنا ... استمع إن شئت إلى هذا الاعتراف الصريح الذي سجله على نفسه أخطر عنصر من عناصر الشر في العالم ـ الشيطان الرجيم : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ »[1] ... يا بني . إن الذي يسميه الناس إكراهاً في هذا الباب ، ليس في حقيقته بإكراه إنما هو ضرب من الضغط المادي أو الأدبي ، لا يسلب الإرادة ولكنه قد يضعفها قليلاً أو كثيراً . نعم . إذا بلغ هذا الضغط حداً تكاد تنعدم معه قوة المقاومة ، كان لنا حينئذ أن نسميه إكراهاً حكمياً ، أو شبه إكراه ، وكان لنا أن نجعله رخصة وعذراً ؛ لا لأرباب العزائم القوية ، ولكن

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

للضعفاء ، بصفة استثنائية . غير أن هذا الحد الذي يصح أن نسميه إكراهاً حكمياً يتفاوت في نفسه تفاوتاً كبيراً تبعاً لاختلاف الوسائل التي تستخدم فيه ، واختلاف النفوس التي يقع عليها ، واختلاف الأغراض التي يتخذ من أجلها فرب أمر واحد يُعد إكراها في حال ، ولا يعد إكراها في حال أخرى . وليس المجال الآن مجال البسط والتفصيل ولكني أُوجه نظرك إلى حقيقة قد يغفل الناس عنها ، وهي أن ها هنا حرمات مقدسة قد رفعتها الشريعة إلى الأُفق الأعلى ، فلم ترخص لقوي ولا لضعيف أن ينتهكها ، ولو في أشد حالات الإكراه والاضطرار .. دونك مثالاً من هذه المقدسات : هذا رجل قاطع طريق قد أصلت سيفه على رأسك ، وجعل يأمرك أن تقتل فلاناً هذا البريء ، الذي تعرف أنت براءته ، وجعل ينذرك ويهددك بأنك إن لم تقتله أو لم تحكم بقتله أجهز على حياتك ورأيت في عينيه الجد والعزم المصمم ... أفتقتل هذه النفس البريئة خوفاً على نفسك ؟. كلا . فتلك بإجماع المسلمين جريمة لا تغتفر . ولأن تُقتل مظلوماً خير من أن تَقتل بريئاً .

ولكن تدافع هذا الصائل عن نفسك. فإن دُفع فقد أَحييت نفسين، وإن قُتلت أَنت فقد أَحييت نفساً وادخرت لنفسك جزاء الشهداء.

بسم الله الرحمن الرحيم

مسئولية المغرر بهم

الحمد لله الذي خلق لنا آياته البادية ، وجعل كتابه الكريم معجزة باقية . وصلى الله على من اختاره ربه لتعميم دعوته ورسالته ، وفضله على الأولين والآخرين من بريته وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

بينما يتدارس التلميذ والأستاذ قضيــة المسئوليات الخلقية في نظر القرآن ...

قال المربي لتلميذه : هل بقيت لديك يا بني شبهة ، في أن الفعل الواحد ، قد يحاسب عليه اثنان ؛ فاعله المباشر والداعي إليه ، المحرض عليه ؟. هل بقيت لديك شبهة في أن تعلل الجاني بأنه ارتكب جريمته مكرهاً ، تحت سلطان الأمر من رئيسه ، تعلل غير مقبول ، لا في دساتير الأرض ولا في دستور السماء ؟.

قال الطالب : إني لأعتذر إلى الله ثم إليك ، إن كنت

جادلتك عن أولئك الذين يختانون أنفسهم وهم يعلمون طاعة لسادتهم وكبرائهم ، وائتماراً بأمر رؤسائهم .. لقد كنت أراهم في وضع يجعل اقترافهم للإثم ليس عن طوع واختيار ، ولكن عن إلجاء واضطرار . فالآن كشفت الغطاء عن عيني في هذه القضية ، فتبينت ما هو إكراه ، وما هو شبه إكراه ، وما ليس بإكراه ، وعرفت أن أمر الرئيس لمرؤوسه بغير الحق لا يبرئ المرؤوس من مسئوليته أمام الله وأمام القانون ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. غير أني قد بقيت عندي شبهة قوية ، لا أستطيع دفعها عن نفسي بشأن فريق آخر ؛ لا يقترفون الإثم عدواناً عن علم وعمد ، ولكن عن غفلة وحسن قصد . إنهم يفعلون السيئة وهم يحسبونها حسنة ، ويعتنقون الباطل وهم يظنونه حقاً ... لقد وقعوا فريسة للدعايات الكاذبة ، والأقاويل الخادعة المضللة ... صدقوا ما سمعوا ، فامتثلوا واتبعوا .. أليس هؤلاء جديرين بأن نرفع عنهم كل مسئولية ومؤاخذة ، وأن نجعل وزرهم كله على الذين ضللوهم وخدعوهم ؟.

قال المربي : هيهات هيهات ! إنه لو كان الأمر كما تظن ، لقال الله عن رؤوس الكفر والضلالة أنهم سيحملون أوزار أنفسهم وأوزار أتباعهم كاملين ، ولكنه يقول : «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »(١) ، فترك على المخدوعين المضللين وزراً باقياً . ولا تحسبن أن كلمة : «مِنْ» ها هنا معناها التخفيف عن هؤلاء التابعين . كلا ، بل المعنى أن ذنوبهم ستكون سبباً في أن يحمَّل مثلها على متبوعهم من غير أن ينتقص عنهم شيء منها . بهذا صرحت الآيات الأخرى : « وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ »(٢) . « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ »(٣) . بل في القرآن ما هو أصرح من ذلك ؛ ألم تستمع إليه وهو يقول : « حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ »(٤) .

---

(١) سورة النحل : ٢٥ . (٢) سورة العنكبوت : ١٢ .
(٣) سورة فاطر : ١٨ . (٤) سورة الأعراف : ٣٨ .

قال الطالب : « لِكُلٍّ ضِعْفٌ » ؟. كيف هذا ؟. قد أفهم أن يكون للمضلِّلين عذاب مضاعف ؛ عذاب الضلال وعذاب الإضلال . أما المضلَّلون ففيم يضاعف لهم العذاب ؟!.

قال المربي : لأنهم بعد ضلالهم جعلوا أنفسهم آلة لترويج الضلال ، وأداة لنشر الفساد .

قال الطالب : الذي لم أفهمه بعد ، هو تلك المسئولية التي نحمِّلها لهذا المسكين ، الذي اتُخذ معه من وسائل الإقناع ، وأساليب التغرير ، ما أصبح به سقيم الفكر ، مبتور العزم ، لا يرى إلا بعين واحدة ، ولا يسمع إلا بأُذن واحدة . بل لا يرى بتلك العين إلا لوناً واحداً ، ولا يسمع بتلك الأُذن إلا صوتاً واحداً ، بقدر ما يأْذن له سيده أن يرى ويسمع . أما ما وراء ذلك فقد أصبح عنه غافلاً كالنائم . أليس الله أرحم من أن يكلف مثل هذا العاجز الغافل ؟!. « ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ »(١) .

قال المربي : بل إن الرجل الذي يصل التغرير به إلى

(٥) سورة الأنعام : ١٣١ .

الحد الذي وصفت ، مسئول عن هذه النهاية ، لأنه هو الذي جرّها إلى نفسه باستنامته واستسلامه منذ البداية .
لقد جعل الله لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، وما برح كتاب الله يهتف بنا : « أَفَلاَ تَسْمَعُونَ »[1] ، « أَفَلاَ تُبْصِرُونَ » ؟[2] « أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ »[3] . ولكن الرجل ألغى تفكيره وعطل مشاعره ، فلم يبذل جهداً في استبطان الأمور . واستنباط الحقائق ، بل سلّم زمام رأيه لغيره ، فجعل يصدق كل ما يسمع ، ويثق الثقة العمياء بكل ما يروى ويُدعى ، حتى فسدت فطرته وانتكست فكرته ؛ فلو أن السواد الحالك سمّي له بياضاً ناصعاً لاتهم حاسته ووجدانه ، ولو أن الشر المحض صوِّر له خيراً خالصاً لقال : لعل صاحبي يرى أعمق مما أرى ... فمَثل هذا المخدوع الإمعة ، في احتماله تبعة أعماله كمثل السكران الذي يصل به السكر إلى العبث والعربدة ، فهو مسئول عن عبثه وعربدته في حال سكره لأنه هو الذي أدخل على نفسه السكر باختياره .

---

(١) سورة القصص : ٧١ . (٢) سورة القصص : ٧٢ .
(٣) سورة الأنعام : ٥٠ .

قال الطالب : هب هذا المضلَّل المسكين يعيش في بيئة كل الناس فيها يسمعون مثل ما يسمع ، ويرون ويفكرون كما يرى ويفكر ... ألا يكون هذا عذراً له في الاستمرار على خطئه وغفلته ؟. إذ من ذا الذي يخطر بباله أن يتهم قومه كلهم بالاجتماع على ضلالة ؟.

قال المربي : قد يكون هذا عذراً ما للعامة والدهماء المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ... ومن هنا بعثت الرسل منبّهين ومذكرين ، لئلا يقول الناس إنا كنا عن هذا غافلين ...

قال الطالب : وهل يكفي التذكير والتنبيه لتحرير العقول وإطلاقها ، وهي حبيسة في حظيرة العقلية الجماعية؟. ألست ترى أن الفــرد في الجماعة لا يفكر بملء حريته واستقلاله ، ولكنه ينساق انسياقاً في تيار الفكر الجمعي ؟.

قال المربي : صدقت يا بني . وإن القرآن الحكيم لم يغفل هذه الحقيقة ، ولم يهمل علاجها ، فقد دعا كل واحد منا أن يخلو بنفسه ويتساءل في هدوء وطمأنينة ، عن حقيقة الأمر في كل ما حوله من أفكار وعقائد ، وأخلاق

وعوائد ، ليخرج منها برأي مستقل ، يحتمل هو مسئولياته وتبعاته . هكذا يقول - تسامت حكمته - : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ »[1] . غير أنه لما كان تمحيص الرأي الفردي لا يتم أحياناً إلا بمعونة الغير ، حصر القرآن هذه الرخصة في أضيق حدودها ، ولم يأذن بأن تدور هذه المحاورة بين أكثر من اثنين اثنين ، حتى لا يتشعب الرأي ويتبدد ، وحتى لا يقع الفرد تحت سلطان العقلية الجماعية . فذلك هو أساس الحكمة التي دعا إليها القرآن وجعلها هي الوصية الوحيدة لطلاب الحق : « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا »[2] .

(١) سورة الروم : ٨ . (٢) سورة سبأ : ٤٦ .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

المسئولية عن فعل الغير

الحمد لله رب العالمين ، مدبر الأمر ، غافر الذنب التواب الحليم . وصلى الله على من وصفه ربه بالخلق العظيم سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الغر الميامين ، وبعد :

في نسق متصل من المحاورة ، حول قاعدةالمسؤوليات الأخلاقية . . .

قال الطالب لأستاذه : قد تبين من حديثك ـ أيها المربي الفاضل ـ أن ها هنا حالتين نكون فيهما مسؤولين عن فعل غيرنا ، ونكون مؤاخذين معه بذنبه :

الحالة الأولى : أن يكون ذلك الغير ، قد فعل فعلته امتثالاً لأمرنا ، وخضوعاً لسلطاننا ، رغم علمه بسوء ما يصنع وقبح ما يرتكب .

الحالة الثانية : أن يكون موقفنا منه ليس موقف أمر وإلزام ، ولكننا زيّنا له السيئة حتى رآها حسنة ، وروّجنا له الباطل حتى ظنه حقاً ، وكان في وسعه ـ لو انتفع بمداركه ومواهبه ـ أن يرى الحق حقاً فيتبعه ، وأن يرى الباطل باطلاً فيجتنبه ، ولكنه وثق الثقة العمياء بمن حوله ، فجعل يرى بأعينهم ، ويسمع بآذانهم ، ويفكر بعقولهم ، حتى وقع فريسة لخدعة الخادعين ، وضلة المضلين . .

وقد تبين من حديثك ـ أيها المربي الفاضل ـ أن مسؤوليتنا في كلتا الحالتين عن سلوك هؤلاء الإمعات ، الذين ائتمروا بأمرنا ، أو خدعوا باحتيالنا ، أن مسؤوليتنا هذه لا تعفيهم من مسؤوليتهم ، ولا تخفف عنهم شيئاً من أوزارهم . كما أن الذي يفعل الخير ، استجابة لدعوتنا ويعتنق الحق . اقتناعاً بحجتنا ، يوزن عمله في كفة حسناتنا ، من غير أن ننتقص شيئاً من أجره . . كل هذا قد حصلته من بيانك ـ أيها المربي الفاضل ـ وقد عقلته ووعيته . .

والآن أستزيدك علماً فأسألك : هل هناك حالات أُخر تنتشر فيها المسؤولية إلى مدى أبعد من هذا ؟. أعني أنها

تتعدى من الفاعل المباشر ، إلى من لم يشاركه في عمله ولم يأمره به ، ولم يزينه له ؟.

قال المربي : نعم .. إن الذي لم تعرفه بعد في هذه القضية ، لهو أوسع نطاقاً مما عرفت ، ولا أشك في أنه سيكون أشد غرابة في نظرك .. لقد كان عندك عجباً ـ في باديء الأمر ـ أن يكون الذي أمر بالفعل أو رغب فيه يُسأل عنه ويجازى عليه ، كما يُسأل ويجازى فاعله سواءً. ذلك على أنه ليس في الأمر من عجب ؛ فإن الذي يأمر بالفعل أو يرغب فيه ، قد تسبب فيه تسبباً مقصوداً ، إذ كان حريصاً على صدوره من فاعله . وسعى لذلك سعياً بقوله وفعله ، ونيته وقصده .. فليت شعري ، ماذا سيكون موقفك الآن لو عرفت أننا قد نُسأل عن الفعل ، يفعله غيرنا من تلقاء نفسه ، دون أن نأمره به ، أو نحرضه عليه ، أو نرغبه فيه ؟!. بل دون علم منا ولا شعور بأنه فعله أو بأنه سيفعله ، بل حتى لو فعله بعد موتنا ، ولو بعد قرون من عصرنا ؟!.

قال الطالب : إنه لعجيب حقاً أن نُسأل عن شيء لم

نفعله ، ولم نأمر أحداً أن يفعله ، ولم نرد أن يفعله ، بل لم يخطر ببالنا أنه سيفعله . أليست الأعمال بالنيات ؟. فكيف نُسأل عن شيء لم تتناوله نيتنا ؟!. كيف نحاسب على شيء عمله غيرنا ونحن عنه غافلون ؟!.

قال المربي : ألم تتدبر هذا التعبير القرآني الحكيم : « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ »[1] ؟. ألا ترى كيف جمع إلى الفعل المباشر آثاره كلها ، ولم يشترط فيها أن تكون إرادية ، أو لا شعورية ؟. ذلك أننا متى توجّهت نيتنا إلى عملنا المباشر ، ثم باشرناه عمداً وقصداً ، ونحن عالمون بما فيه من البر أو الإثم ، فقد تمت أركان مسؤوليتنا ، ولو لم نعرف مدى ما يتولد عنه من الأصداء والآثار ، وما مقدار ما يترتب عليه من الأجزية والنتائج . ألا ترى أن الله يرزق المتقي من حيث لا يحتسب ، ويحبط عمل المسيء من حيث لا يشعر ؟. فكما أننا نستحق هذه النتائج والأجزية الإلهية وننالها من غير أن نتوقعها أو نشعر بها ، كذلك نحمل تبعة النتائج والآثار الاجتماعية التي تنشأ عن عملنا ، ولو لم نقصدها ولم نشعر بها .

---

(١) سورة يس : ١٢ .

قال الطالب : هلاَّ ضربت لنا مثلاً من هذه الآثار الاجتماعية ، وتبعاتها الأخلاقية التي تحمل علينا ، ولو لم نقصدها ولم نتوقعها ؟ .

قال المربي : اعلم يا بني أنك لن تعمل عملاً من خير أو شر ، في أقصى المشرق ، ثم يسمع به أحد في أقصى المغرب ، فيستحسنه ويحاكيه .. ولن تقول مقالة ، في رضوان الله أو في سخطه ، فيرددها وينشرها غيرك ، في حياتك أو بعد موتك .. ولن تضع لبنة في أساس منشأة برّة أو فاجرة ، فيجيء آخرون من ورائك ، فيتابعوا رفع البناء .. إلا كان لك أو عليك جزاء ما قلت وما فعلت ، وجزاء ما قال الناس من بعدك وما فعلوا .. إلى يوم القيامة .

قال الطالب : يا للهول ! إلى يوم القيامة ؟ .

قال المربي : نعم .

قال الطالب : هل تجد لذلك شاهداً في كتاب الله ، أو في سنة رسوله ؟ .

قال المربي : بل فيها جميعها .. روى مسلم والنسائي عن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول

اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ . وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) . وروى مالك والبخاري ومسلم وغيرهم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ . وأنت فاقرأ مصداق ذلك كله في كتاب الله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً »[1] .

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

تبارك الله جــل شأنه . وله الحمد على كل حال من الأحوال . والصلاة والسلام على رسول الهدى ، وعلى آله وأصحابه . وبعد :

معاً على الطريق يا أخي ، نتابع هذا الحوار :

قال المربي لتلميذه : هل عرفت الآن ، خطأ الذين يزعمون أن أحداً لا يسأل عن عمل غيره قط ، وإنما يُسأل كل امرىء عن عمله المباشر ؟ .

قال الطالب : نعم .. ولقد كنت أنا من بين هؤلاء فلما أنرت لي الطريق ، رأيت حول كل امرىء منا منطقة من أعمال غيره ، يحاسب المرءُ عليها كما يحاسب على أعمال نفسه ، ويجازى عنها كما يجازى عن أعمال نفسه . . ولما ظننت أن هذه المنطقة هي نهاية المدى ، كشفت لي عن

منطقة ثانية وراءها ، علينا أَيضاً حسابها ، ولنا ثوابها وعقابها . . وكذلك ـ حين انتهيت إلى محيط هذه الدائرة الجديدة ـ انفرجت أمام عيني دائرة أُخرى أَوسع منهما مجالاً ، في الزمان وفي المكان .

قال المربي : هل تستطيع يا بني أَن تصف لي طبيعة هذه المراحل التي قطعناها ؟ .

قال الطالب : لقد رأَيت في المرحلة الأولى ؛ أَننا نحاسب ونجازى عن كل فعل يفعله غيرنا امتثالاً لأَمرنا ، وخضوعاً لسلطاننا . . ورأَيت في المرحلة الثانية ؛ أَننا مسؤولون حتى عن عمل أُولئك الذين لم نأْمرهم لزاماً ، ولم نحملهم على الفعل كرهاً ، أُولئك الذين لا سلطان لنا عليهم ، وإنما هو الرأْي زيناه في أَعينهم ، أَو النصح أَسديناه إِليهم ، أَو الفتيا قدّمناها لهم .. ثم رأَيت في المرحلة الثالثة ؛ مسؤوليتنا عن أَعمال الذين لم نأْمرهم ، ولم نحرضهم ، ولم نرغبهم ولكنهم رأَونا أَو سمعوا بنا نعمل عملاً ما ، فاستحسنوا سيرتنا في ذلك العمل ، ونسجوا فيه على منوالنا ، ولو من حيث لا نشعر .

قال المربي : لقد أحسنت سمعاً حين استمعت ، ووفيت جمعاً حين جمعت . ولكن هل اقتنعت ؟ هل آمنت معي بأن مسؤوليتنا عن فعل غيرنا ـ في هذه الأحوال الثلاثة ـ مسؤولية عادلة لها ما يبررها ؟ .

قال الطالب : ومالي لا أومن بذلك ؟ . ألسنا حين نأمر بالفعل أو نرغب فيه ، قد تسببنا فيه تسبباً عن عمد وقصد ؟. أولسنا حين نفعل الفعل ، على مرأى ومسمع من غيرنا ، قد وضعنا أنفسنا موضع القدوة لمن يقتدي ، ورسمنا الطريق لمن يقتفي ؟. وهكذا ـ من حيث نقصد أو لا نقصد ومن حيث نشعر أو لا نشعر ـ قد تسببنا في صدور هذا الفعل الآخر عن فاعله . فهو إذاً من آثارنا التي تكتب علينا . لقد وضعنا النواة التي جاء غيرنا فسقاها . فمن العدل إذاً أن نجني معه ثمارها ، وأن نذوق معه حلوها ومرّها .

قال المربي : أفدت وأجدت . . والآن ، أدعوك أن تسير معي مرحلة أخرى ، لأريك أن مسؤوليتنا تمتد إلى ما وراء ذلك كله .

قال الطالب : هل تعني أننا نسأل عن فعل فعله غيرنا من تلقاء نفسه ، لم تكن لنا فيه سابقة ، ولم يكن لنا في

صدوره تدخل مباشر ولا غير مباشر ، مقصود ولا غير مقصود ؟!.

قال المربي : نعم .. ذلك الذي أردت .

قال الطالب : حاشا لشريعة الإسلام أن يكون هذا من تعاليمها !. إذ أي مجال يبقى لتطبيق القاعدة الإسلامية العظمى : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ »(١) ، إن لم يكن هذا المجال ؟!.

قال المربي : يا بني لا تعجل . إن الذين يقترفون الإثم من تلقاء أنفسهم ، غير مستنين بسنتنا ، ولا مؤتمرين بأمرنا ولا متبعين لإيحائنا ، لو تركناهم وشأنهم يفعلون ما يشتهون على حسابهم ، وتحت مسؤوليتهم ، إذاً لاستلانوا مركب الضلالة ، واستمرؤوا مرعى الغواية ، وإذاً لكانوا فتنة لغيرهم ، وإغراءً لضعفاء الإرادة باتباع سبيلهم ، وإذاً لانتشرت الآثام في الجماعة ، وشاعت المنكرات في الأمة . ونحن مسؤولون عن طهارة المجتمع وسلامته ، وصلاحه واستقامته : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ »(٢) .. ألم تسمع إلى المثل البليغ ، الذي صورت به

(١) سورة الإسراء : ١٥ .   (٢) سورة البقرة : ٢٥١ .

الحكمة النبوية هذا المعنى ؟ . روى البخاري عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ اللهِ والْمُدَاهِنِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا الْمَاءَ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا : لاَ نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَا ! . فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً . وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعاً). بل ألم تسمع إلى العبرة البالغة ، فيما قصه الله علينا من نبإ بني إسرائيل : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] .

قال الطالب : لقد عوّدتنا أيها المربي الحكيم ، ألا نكتفي بسوق الحكم ودليله ، عن معرفة حكمته وتعليله . وإني

---

(١) سورة المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .

ما زلت أتساءل : أي دخل للبريء منا في صدور الجريمة عن المجرمين ؟. أي تسبب منه مباشر أو غير مباشر ، يبرر مشاركته إياهم في جزاء أعمالهم ؟.

قال المربي : ألم أقل لك يا بني ، إن المسؤولية في هذه المرحلة ضرب قائم بنفسه ؟. ليس من جنس المسؤولية في المراحل السابقة ، بل يجيء من ورائها ؛ ذلك أن سكوتنا عن المنكر والباطل ، ليس تسبباً في أصل وقوع المنكر ، لأنه وقع بغير تدخل منا ، ولكن السكوت عنه تسبب في بقائه واستمراره ، أو في تجدده وتكراره ، أو في شيوعه وانتشاره « كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً »[1] .

قال الطالب : إذا كان النهي عن المنكر واجباً ، والسكوت عنه إثماً ، أليس بحسب الذي يفرط في واجبه ، أن يحمل مسؤولية تفريطه هو ؟. وأن يستحق إثم سكوته هو ؟. أما أن يشارك أرباب المنكرات في مسؤولياتهم ، ويستحق مثل أجزيتهم ، كما هو أصل المسألة ، فتلك دعوى زائدة لم تقدم لنا دليلها ؟ ، فأين نجد هذا الدليل ؟..

---

(١) سورة الإسراء : ٣٨ .

قال المربي : اقرأْ إن شئت قول القرآن الحكيم : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ »[1] ـ إنكم إذا مثلهم . أرأيت كيف جعل الساكت على الكفر ، هو والكافر سواءٌ ؟. وجعل الساكت على الاستهزاءِ ، هو والمستهزئُ سواء ؟.

قال الطالب : الآن جئت بالحق ، وهـذا هو فصل الخطاب .

(١) سورة النساء : ١٤٠ .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

المسئولية التضامنية في الاسـلام

الحمد لله وكفى ، والصـلاة والسلام على المصطفى وعلى آله وأصحابه أهل الصدق والوفا ، وبعد :

قال المربي لتلميذه : لعلي أتعبتك معي يا بني ، بهذه الرحلة الشاقة التصاعدية ؟ . لقد أردت أن تطلع معي على مدى التبعات والمسؤوليات ، التي يحملها المرءُ من جرّاءِ فعل غيره ، فوق مسؤوليته عن عمله المباشر .

قال الطالب : لست من عناءِ البحث أُشفق على نفسي فإن حب الاطلاع يغريني به . ولكني أُشفق على نفسي وعلى الناس ، من أن نعجز عن إيفاءِ المسؤوليات حقها . فلقد سرت بنا حتى الآن مراحل أربعاً ، حملتنا فيها من أعمال الغير تبعات أربعاً ، ما من تبعة إلا وهي أعظم من سابقتها.

قال المربي : ما عهدتك يا بني هكذا هلوعاً ضجراً متبرماً ! . ألم تعترف لي في كل خطوة خطوناها أنها سديدة مستقيمة ؟ . وفي كل قضية قضيناها أنها برّة عادلة ؟.

ثم ما بالك تسميها شؤون غيرنا ، وهي في أَساسها ومنبعها من شؤون أَنفسنا ؟. بل إنها من أَيسر هذه الشؤون ، لمن عرف حقيقة مطالبها ، ذلك أَنها - في غالب الأَمر - لا تتطلب منا إلا موقفاً سلبياً ، ليس فيه بذل نفس ولا مال ولا تضحية فيه بجهد ولا بوقت . إن هو إلا التحفظ والتصوّن ، والإباءِ والكف والامتناع .

وإليك البيـــان :

لقد قلت لك أَول الأَمر : إننا مسؤولون عن فعل غيرنا إذا كان قد فعله صدوراً عن أَمرنا . فلكي تبرأَ من هذه المسؤولية ، ما عليك - إن كنت ذا سلطان - إلا أَن تمتنع عن أَمر مرؤوسيك بشيءٍ فيه إِثم أَو ظلم ، وأَن تكف عن استعبادهم في جلب حظٍّ لنفسك ، وعن استخدامهم في إيصال أَذًى لغيرك .

وقلت لك ثانياً : إننا محاسبون على فعل غيرنا ، إذا كان قد فعله اقتناعاً برأْينا ، واتباعاً لإرشادنا . فما عليك - إن كنت ذا قلم أَو لسان - إلا أَن تصون قلمك ولسانك عن ترويج الباطل ، وتزيين الإثم ، وتحريك الفتنة ، وفتح باب السوءِ والفحشاءِ .

ثم قلت لك : إننا مجزيّون عن فعل غيرنا ، إذا كان قد فعله اقتداءً بسيرتنا ، واستناناً بسنتنا . فما عليك ـ إن كنت ممن يقتدى به ـ إلا أن تجتنب كل عمل يتخذك الناس به قدوة في الباطل ، وإماماً في الضلالة

وأخيراً ، قلت لك : إننا مؤاخذون بذنوب غيرنا ، إذا أقررناها إقراراً صامتاً ؛ بالإغضاء عنها والسكوت عليها . . وهذه هي الحالة الوحيدة التي يتشعب علاجها ، فيكون إيجابياً تارة ، وسلبياً تارة أخرى . كل على قدر همته وعزيمته ، وعلى قدر ما أوتي من وسيلة ، لتحقيق أمانيه وإنفاذ عزائمه . ولقد ضربت لك المثل بركاب السفينة الذين اقتسموا طبقاتها . فإن كنت ممن هم في أعلى السفينة فإن مسؤوليتك خطيرة جسيمة بإزاء أهل الطبقات الدنيا الذين يحاولون أن يخرقوا قعر السفينة بترويج الشكوك والشبهات ، وإثارة الغرائز والشهوات . فإن لم تأخذ على أيديهم توًّا ، في شدة وحزم ، غرقت السفينة كلها ، وكنت أنت من المغرقين .

قال الطالب : الحمد لله الذي عافاني من هذه المسؤوليات العظمى .

قال المربي : أما إن كنت من عامة الركاب ، فما عليك إلا أن تبذل جهدك في النصيحة ، وتبالغ في الوصية ؛ فإما أن يزول المنكر من أمامك ، وإما أن تزول أنت من أمامه مفارقاً لأهله ، مهاجراً إلى ربك ، وليسعك بيتك ، وأمسك عليك لسانك ، وابك على خطيئتك .

قال الطالب : إنها أيضاً لكبيرة إلا على الخاشعين . والآن ، أيها المربي القدير ، أليست هذة المرحلة هي خاتمة المطاف بنا ، حول هذه المسئوليات الإضافية ؟ .

قال المربي : كلاَّ . بل بقيت أمامنا مرحلة أُخرى أعجب إليك وأغرب ، مرحلة نجد فيها أنفسنا ملزمين أن نشاطر المخطىء نتائج خطئه ، وأن نتحمل مع العاثر تبعات زلته .

قال الطالب : أتقول مسؤولية المخطىء ؟!. هل تعني حقاً ما تقول ؟!. أليس المخطىءُ قد وضعت عنه المسؤولية بنص القرآن الحكيم : « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ »[1] . فأي تبعة تبقى عليه بعد ذلك حتى نشاركه فيها ؟! .

(١) سورة الأحزاب : ٥ .

قال المربي : يا بني ، إن الله إنما وضع عن المخطئين مسؤولياتهم الأدبية والجنائية . أما المسؤولية المادية الاجتماعية فإنها باقية بنص القرآن الكريم . ألم تقرأ قول الله تعالى : « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ »(١) ؟ . ألا تعرف أن السنة المطهرة علمتنا كذلك أن الخطأ والعمد في أموال الناس ودمائهم سواءٌ ؟ . ألا تعلم أن علماءَ الأُمّة مجمعون على أن من رمى بسهمه صيداً فطاش سهمه فأصاب إنساناً أو حيواناً أو مالاً ما ، لم تذهب هذه الضحايا هدراً ، بل وجب تعويض ما حدث من تلف وإزالة ما ترتب من ضرر ؟ . ترى من ذا الذي يحمل هذا الغرم ؟ . أيحمله هذا المخطىءُ ؟ . إن الإسلام لأرحم من أن يترك هذا البائس المسكين يحمل وحده غرامة نزلت به لم يصنع هو سببها باختياره . أين إذاً تلك القلوب الرحيمة التي أمرها أن تحيطه بعطفها ؟ . وأين تلك السواعد القوية التي جنّدها لتقيل عثرته ؟! . أين الجماعة التي جعلها الله كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ؟! . هكذا قضى الإسلام أن دية الخطإ لا يحملها

---

(١) سورة النساء : ٩٢ .

المخطئُ وحده ، بل تحملها معه طائفة ممن حوله ، يسهم فيها معهم كواحد منهم . تحملها معه عاقلته ؛ عصبته وقرابته ، أو أهل ديوانه . فإن لم يجد هؤلاء ما يحملون حملتها عنه الدولة ؛ كما تحمل عن الغارمين غرمهم وتؤدي عن المدينين ديونهم .

قال الطالب: ألست ترى معي أن للقضاء والقدر نصيباً كبيراً في جناية الخطإ ؟ . فهل نُسأَل هكذا عن فعل القدر .

قال المربي : يا بني . لا تكن كالذين إذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، قالوا : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ »[1] .. نعم يا بني ، نُسأَل عن فعل القدر . لا نسأَل عنه: لماذا نزل ؟. ولكنه إذا نزل ، نُسأَل أن نخفف وقعه ونلطف أثره ، فإنه من أجل هذا نزل ، نزل ليثير عزائمنا ويختبر جهودنا ، ويتقاضى جهادنا .. نعم يا بني ، إننا مسؤولون مادياً وأدبياً عن كل ما تجري به المقادير حولنا ؛ نُسأَل عن جوع الجائع ، فنطعمه ونغذوه ، وعن عري العاري فنستره ونكسوه ، وعن جرح الجريح ، فنأْسوه ، وعن

---

(١) سورة يس : ٤٧ .

الفقير فنغنيه ، وعن تشرّد ابن السبيل فنؤويه ، وعن جهل الجاهل وضلال الضال ، فنعلمه ونهديه .. يا بني ، إن الأمّة التي ينطوي كل فرد فيها على نفسه ، ولا يسأل فيها جار عن جاره ، والتي يترك فيها هؤلاء العاثرون ، فريسة لبؤسهم ويأسهم ، ليست هي الأمّة التي قال الله تعالى فيها : « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[1] .. أرأيت يا بني إلى أي مدى بلغت مسؤولياتنا ؟. إنها ـ في هذه المرحلة الأخيرة ـ ليست مسؤولية أدبية عن ذنوب الناس وآثامهم ، ولكنها مسؤولية مادية عن آلامهم وآمالهم .

تلك هي المسؤولية التضامنية في الإسلام ، لا أقوالاً عائمة ، ولكن حقائق ملموسة ، مفصلة معينة .. هل رأيت مثل هذا في شريعة غير شريعة الإسلام ؟.

قال الطالب : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً . وجزاك الله عنا خير الجزاء .

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

المسئولية عن الاعمال القلبية

أحمدك اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك وطاعة نبيك محمد ، صلى الله عليه ، وعلى آله وأصحابه وسلم .

آن لنا يا بني أن نعرف مدى مسؤولية المرء عن عمل نفسه . فلنقرأ معاً :

قال التلميذ لأستاذه : لقد حدثتني مليًا في شأن المسؤولية عن فعل الغير ، وعن آثار فعل الغير . وقد بسطت القول – مشكوراً – في تفصيل هذه المسؤوليات الإضافية . فهل لك أن تحدثني كذلك – بشيء من التفصيل – عن المسؤولية الأساسية ؛ مسؤولية كل امرئ عن عمل نفسه ؟ .

قال المربي : زادك الله يا بني حرصاً على المزيد من المعرفة ورزقني وإيّاك الإخلاص في طلبها ، والتوفيق إلى العمل بأحسنها .. نعم يا بني لقد طوّفت بك كثيراً في مناطق المسؤوليات غير المباشرة . فالآن أعود بك إلى مركز الدائرة ؛

إلى المسؤولية الأولى ، التي كل ما عداها فإنما هو انعكاس لأشعتها ، وترديد لصداها .

وسوف ترى أن هذه المسؤولية الأولى بدورها أبعد عمقاً وأوسع نطاقاً ، وأعلى ذروة ، من أن تبرز حدودها في تلك الكلمة المشهورة : مسؤولية كل امرئ عن عمل نفسه .. ذلك أن كلمة العمل ، أقرب ما يفهم منها ، تلك الحركات الظاهرة التي من شأنها أن تقع تحت الحس ، وأن تكون في متناول السمع والبصر .. على أننا حتى لو أخذنا كلمة العمل - بأوسع معانيها - لتنتظم الأعمال الظاهرة والباطنة فإنها لا تتناول وسائل العمل نفسها ؛ من القوى والملكات والمواهب ، وسائر المقدرات الذاتية والخارجية ، التي سنسأل عنها ، وعن وجوه انتفاعنا بها .. وأخيراً ، فإن كلمة العمل أكثر ما تصور لنا العامل ؛ إما فرداً مستقلاً منعزلاً يعمل لحساب نفسه ، وإما فرداً يعامل فرداً . وقلّما تصوره لنا رأساً مدبراً ، مهيمنا على منطقة أو مناطق من العالم ، مسؤولاً عن صلاحها واستقامتها ، واتجاهها قدماً إلى غايتها .

النظرة الأولى ؛ التي تقف بالمسؤوليات عند حدّ الأقوال

والأعمال الظاهرة ، نظرة قشرية سطحية ، لا تنفذ إلى جوهر الأمور ولبّها . إنها تفترض الإنسان آلة لا قلب لها .

والنظرة الثانية ؛ التي تنظر إلى مفردات الأعمال وآحادها لترى : هل أدّاها المرءُ على تمامها ؟. نظرة عددية ؛ تختبر من المرءِ قوته الذاكرة ، لا قوته المفكِّرة ، كأنما تفترضه نصف آلة ، أو آلة حاسبة .

والنظرة الثالثة ؛ التي لا تعتبر من كل امرىءٍ إلا مسؤوليته الفردية . تفتت الإنسانية تفتيتاً يجعلها ذرات متناثرة لا سلطان لها على الكون ، ولا هيمنة لبعضها على بعض .

إن الصورة التي ترسمها هـذه الخطوط عن حقيقة مسؤولياتنا المباشرة ، صورة ناقصة مبتورة ، وهي صورة تغض من قيمة الإنسان المسؤول ؛ إذ تجعله آلة أو شبه آلة أو تجرده من منصب خلافته في الأرض . فلكي نردّ إليه اعتباره كاملاً ، ينبغي أن نقيس مسؤوليته في أبعادها الثلاثة : عمقياً ، وأفقياً ، ورأسياً .

قال الطالب : على رسلك أيها المربي الحكيم .. هاتها واحدة واحدة .. ولنبدأ ببيان ما تعني من امتداد مسؤولياتنا من جهة العمق .

قال المربي : أُريد أَن تعرف يا بني ، أَننا لسنا مسؤولين عن أَعمال جوارحنا فحسب ، ولكننا مسؤولون كذلك عن أَعمال قلوبنا .

قال الطالب : كيف نُسأَل عن أَعمال قلوبنا ، والقلوب بيد الله ، يقلِّبها كيف يشاءُ ؟!. هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو القدوة العظمى ؛ في الحزم والعزم وضبط النفس ، كان يقول : (اللّهُمَّ هٰذَا جَهْدِي فِيمَا أَمْلِكُ وَلاَ طَاقَةَ لِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ) . يعني شؤون القلب . والقرآن نفسه يقول : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ »[1] .

قال المربي : يا بني . إن الله لا يحول بين المرءِ وقلبه ابتداءً :«إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»[2] . وإنما يحول بين المرءِ وقلبه ؛ عقوبة له على سوءِ كسبه . إما بإِعراضه عن داعي الله : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا »[3] . « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ »[4] . وإما بإِغماضه عن نور الله : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ

---

(١) سورة الأنفال : ٢٤ .
(٢) سورة الرعد : ١١ .
(٣) سورة السجدة : ٢٢ .
(٤) سورة الصف : ٥ .

نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »[1] . وإما بمعصيته لله : « بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[2] . وما أراك يا بني إلا قد التبس عليك الأمر بين أعمال القلوب ، وأحوال القلوب ؛ فالذي لا نملكه ولا نُسأل عنه هو الأحوال القلبية من الحب والبغض ، والفرح والحزن ، والبسط والقبض وما أشبهها . أما عمل القلوب فنحن نملكه و نُسأل عنه .

قال الطالب : أين نجد الشاهد على هذه المسؤولية عن عمل القلوب ؟ .

قال المربي : نجده في كتاب الله ، فهو يقول : « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ »[3] .

قال الطالب : وما يدرينا أن معنى الباطن هنا هو عمل القلوب ؟ . لماذا لا يكون المقصود عمل الجوارح في السر ؟ .

قال المربي : إنها تنتظم بعمومها كلا المعنيين . ومهما يكن من أمر فإليك ما هو أوضح دلالة على مقصودنا ؛ وذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : « يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ »[4] .

---

(١) سورة الزخرف : ٣٦ .
(٢) سو ة المطففين : ١٤ .
(٣) سورة الأنعام : ١٢٠ .
(٤) سو ة الطارق : ٩ .

« وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ »[1] . « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ »[2] . وقد دلت الآية بعدها على أننا لا نحاسب ، على ما يدور في خلدنا من الخواطر غير المستقرة ، التي لا كسب لنا فيها ، وإنما نُسأَل عما لنا فيه كسب واختيار ، ولنا عليه عزم وإصرار .

قال الطالب : مثل ماذا ؟ .

قال المربي : الأَمثلة كثيرة ، والأَنواع عديدة ، والدرجات متفاوتة من الأَساس إلى القمة ، ومن العقيدة ، إلى الفريضة إلى النافلة . . فأَول ما نُسأَل عنه من عمل القلوب ؛ الإِيمان بالله : نُسأَل : هل آمنا بهذا الحق الأَعلى ؟ . ثم هل كان إيماننا به على بصيرة وعن بينة ، أَم كان مجاراة لقومنا واتباعاً لمـــا وجدنا عليه آباءَنا ؟ . ثم هل ثبتنا على هذا الإِيمان بعد أَن حصلناه ؟ . هل حرصنا على تنقية مرآة قلوبنا أَولاً فأَولاً من غبار الشكوك والشبهات ، التي تحاول طمس نورها ؟ . أَم نحن كلما عرضت لنا شبهة ركنَّا إليها حتى صدئت مرآة قلوبنا ، وحتى أَكل الصدأُ معدنها ؟ . .

(١) سورة العاديات : ١٠ .   (٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

وبعد السؤال عن الإيمان ، يجيءُ دور السؤال عن أُمهات الفضائل النفسية ؛ من الصبر والحلم والتواضع والرحمة وأَمثالها ، وعن كبائر الآثام القلبية ؛ كالحقـــد والحسد والكبر والعجب ، والنفاق والرِّياء ، وتبييت نيّة الأَذى للخلق ، بغير جناية جنوها ، وكتمان كلمة الحق حين يدعو الداعي إليها ، فإن الساكت عن كلمة الحق شيطان أَخرس : « وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ »[1]. وأَخيراً يجيءُ السؤال عن فواضل التضحية والإيثار ، وعن نوافل الزهد والورع : هل ننظر في ديننا إلى من هو دوننا ، لنرضى من أَنفسنا بالدون ؟. وننظر في دنيانا إلى من فوقنا فنأْسف على ما فاتنا منها ؟ . أَم هل ننظر في ديننا إلى من فوقنا فنقتدي به ؟ . وننظر في دنيانا إلى من دوننا فنحمد الله على فضله ؟. حتى نكتب من الشاكرين الصابرين ؟ .

قال الطالب : كتبنا الله وإيّاك من الشاكرين الصابرين .

(١) سورة البقرة : ٢٨٣ .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مسئولية المرء عن عمره

وبه نستعين . وصلى الله على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آلـه وأصحابه والتـابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

أخي القارئ الكريم ، قليلاً من وقتك لمتابعة هـذا الحوار النافع :

قال التلميذ لأستاذه : لقد علمتنا – أيها المربي القدير – أن مسؤوليتنا الأساسية المباشرة ، أبعد مدًى من أن تبرز حدودها في تلك العبارة المشهورة : مسؤولية كل امرئ عن عمل نفسه ، وقد أرشدتنا إلى الطريقة المثلى في تحديد هذه المسؤوليات ، إذ وصيتنا بأن نقيسها من أبعادها الثلاثة ؛ من ناحية عمقها ، ومن ناحية اتساع أفقها ، ومن ناحية ارتفاعها . ثم بدأت بأن بينت لنـا ماذا تعني بامتداد مسؤولياتنا من جهة العمق ؛ إذ عرّفتنا أننا لن نحاسب على أقوالنا وأفعالنا الظاهرة فحسب ، ولكننا سنسأل كذلك – بل قبل ذلك – عن أعمال قلوبنا ؛ عن عقائدنا وإراداتنا

ونيّاتنا . ذلك أن القلب هو الأساس الذي إذا قوي استمسك البنيان كله ، وإذا وهى تداعى البنيان كله .

هذه إذاً واحدة قد وعيناها . فهات لنا الثانية إن شئت ماذا تعني بامتداد مسؤولياتنا امتداداً أفقياً ؟ .

قال المربي : أريد يا بني أن أوجه نظرك ها هنا إلى حقيقة مهمة ، يغفل عنها أكثر الناس ، فأكثر الناس يظنون أن مسؤليتنا الشخصية إنما هي عن عملنا ، وعن العمل وحده . والواقع أننا مسؤولون عن العمل ، وعن رأس مال العمل .

قال الطالب : وما رأس مال العمل في موضوعنا ؟ .

قال المربي : كل وسائل العمل وأدواته . ألا تدري أن مواهبك المادية والمعنوية ، ومقدّراتك الذاتية والخارجية كل أولئك أنت مسؤول عنه ؟ .

قال الطالب : أراك تعدّ أشياءَ ليست من صنعتي ، ولا تدخل تحت إرادتي . فكيف أسأل عما لم أصنع؟!. أم لعلك تريد أن تقول أننا مسؤولون عن صيانة هذه المواهب ورعايتها ، وعن حسن التصرف فيها ، وحسن الانتفاع بها ؟ ! .

فإن كان ذلك هو ما تقصد إليه ، فقد رجعت المسألة إلى نوع واحد ، وأصبح موضوع المسؤولية دائماً هو العمل ، ولا شيء سوى العمل .

قال المربي : لو أنعمت النظر قليلاً لانكشف لك الأمر عن سؤالين مختلفين : سؤال عن عملك الذي صنعت ، وسؤال عن وسائل العمل التي استخدمت .

قال الطالب : من أين لنا هذا ؟ .

قال المربي : من كتاب الله . أما السؤال عن العمل ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] . وأما رأس مال العمل ، فحسبك أن تسمع فيه قول الله تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً »[2] . وقوله في الآية الأخرى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »[3] .

قال الطالب : أليس مضمون السؤالين واحد ، وإن وضعا في صيغتين مختلفتين ؟ .

---

(١) سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣ . (٢) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٣) سورة التكاثر : ٨ .

قال المربي : لو كان ذلك لهان الأمر ، ولكن هيهات !. إنهما سؤالان جدّ مختلفين ، وإن الإجابة عن ثانيهما هي أشق وأدق الإجابتين .

قال الطالب : أرغب إليك أن تبين لي هذا بياناً شافياً .

قال المربي : ألق سمعك ، وأيقظ قلبك .. أرأيت لو أن رجلاً أعطاك قدراً من المال لتتجر له به ، أتراه يتولى بنفسه رسم خط سيرك في التجارة تفصيلاً وتحليلاً ، حتى يعيّن لك السوق التي تشتري منها ، والسوق التي تبيع فيها ، ويحدد لك ثمن كل سلعة في شرائها وفي بيعها ، ويضع لك صيغة الدعاية لترويجها ، وهلم جرًّا ، حتى تصبح في يده آلة كاتبة أو حاسبة ؟.

قال الطالب : كلا . وإنما يرسم لي الخطوط العريضة التي يحدد بها حقوقي وواجباتي ، ثم يكل ما وراء ذلك إلى تقديري وتدبيري . وهكذا يعاملني كما يعامل شخصاً مسؤولاً عن تثمير ماله وازدهار تجارته .

قال المربي : حسناً . فإذا اكتفيت بتطبيق نصوص العقد الذي بينك وبينه ، فلم تترك فيها التزاماً صريحاً

إلا وفّيته ، ولا محظوراً صريحاً إلا تحاميته ، ولكنك قعدت بعد ذلك فارغاً غافلاً ؛ فتركت البضاعة يتراكم عليها التراب ، وتنسج عليها بيوت العنكبوت ، ولم تبد فطنة ولا حذقاً ولا مهارة ، فيما وكله إلى تدبيرك وتقديرك وإلى فطنتك وحذقك ومهارتك .. أتظن أنك بهذا تكون قد أديت كل رسالتك ، وأخليت نفسك من كل مسؤوليتك ؟. ألست ترى أنك على العكس ؛ تكون قد ضيعت من أمانتك أعظم شطريها ، وأخللت من مسؤوليتها بأدق وأشق ركنيها ؟.

قال الطالب : بلى .

قال المربي : فذلك مثل ما منحك الله من القوى والملكات والمواهب ؛ في سمعك وبصرك ولسانك وعقلك وجوارحك وما آتاك من رزق ؛ في مالك وعشيرتك وإخوانك وأعوانك وما سخّر لك من وقت مدّ به في حياتك وعمرك . لقد جعل ذلك كله رأس مال لك ؛ ثبت به قدمك على الأرض ، ورفع به رأسك إلى السماء ، وطلب إليك أن تنمي هذه الثروة كلهـا ، بالعمل بها في كلا المجالين ؛ تحصيلاً لمعاشك وتأميناً لمعادك ، إحساناً إلى الخلق وعبادة للخالق . وقد حظر

عليك محظورات عيّنها ، وكتب عليك فرائض بيّنها ، ثم رسم لك قواعد عامة لتثمير هذه الثروة ؛ في سبل البر والتقوى والعمل النافع ، وترك لتدبيرك وتقديرك اختيار الأُسلوب المعين ، الذي تختاره لتثميرها في داخل هذا النطاق العام . فهل لك بعد ذلك أن تجيء فتقول : إذا أديت الفرائض واتقيت المحارم فلا عليّ أن أعمل أو لا أعمل ؟!. كلا . إن الله لا يحب أن يراك فارغاً عاطلاً ، ولكن يحب أن يراك كادحاً عاملاً . إن كل فترة في جهدك ، وكل تراخ في نشاطك ، تعطيل للثروة التي أمرك بتثميرها ، وإخماد للروح التي ندبك إلى تزكيتها : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »[1] . إن الإسلام دين نشاط وعمل ، لا دين قعود وكسل ، إنه عمل للآخرة والدنيا جميعاً .. انظر في القرآن الكريم إلى صفات المؤمنين ... وصفات عباد الرحمن .. وصفات المحسنين : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ »[2]. « الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً »[3] .

---

(١) سورة الشمس : ٩ ، ١٠ . (٢) سورة السجدة : ١٦ .
(٣) سورة الفرقان : ٦٤ .

« كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »(1). هذا عملهم للدين . أما عملهم للدنيا ، فكل الديانات المعروفة تحظر على أتباعها العمل يوماً كاملاً في الأسبوع ، وليس في الإسلام عطلة واجبة إلا ساعة من نهار في كل جمعة : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ »(2) . « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ »(3) .. لا تقل إذاً : لقد أديت فريضتي ، فلأقتل وقتي في اللهو واللعب . كلا ، إن وقتك هو ثروتك ، هو رأس مالك ، هو حياتك . لا تقتل وقتك فتقتل نفسك . إن كل دقّة من دقّات قلبك ، وكل لمحة من لمحات بصرك ، وكل خفقة من خفقات نَفَسك ، تهتف بك : هل ضيعتني ، أم في شيء من الخير اغتنمتني ؟. ألم تسمع إلى قول النبي – عليه السلام – : (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ .. » فجعل أول المسائل الخمس سؤال كل امرىء :

---

(1) سورة الذاريات : ١٧ – ١٩ .
(2) سورة الجمعة : ٩ .
(3) سورة الجمعة : ١٠ .

« عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ » .. أي : عن وقته فيم ضيعه . بل ألم تسمع إلى قول الله تعالى : « فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ »(١) . . إذا فرغت من عمل ، فاشغل نفسك بعمل .. إذا فرغت من عمل لدينك ، فاشتغل بعمل لدنياك ، وإذا فرغت من عمل لدنياك ، فاشتغل بعمل لدينك . إذا فرغت من حاجة بدنك فخذ غذاءً لعقلك ، أو متعة لروحك . وإذا فرغت من شأن نفسك ، فأقبل على شأن أسرتك ، ثم على شأن أمتك . . وهكذا .. لا فراغ .. لا فراغ . . إلا استجماماً وتأهّباً للعمل . إنه لا يركن إلى الفراغ إلا الفارغون : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ »(٢) .

---

(١) سورة الشرح : ٧ .   (٢) سورة الأنبياء : ١ .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

المسئولية عن أهداف العمل

سبحانك اللهم وبحمدك . وصلاة ربي وتسليماته على شفيع الناس يوم القيامة ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد :

قال التلميذ لأستاذه : لقد عرفت الآن عنصراً جديداً من عناصر مسؤوليتنا المباشرة ؛ عرفت أننا محاسبون ، لا على آحاد أعمالنا فحسب ؛ على فرائضها هل أديناها ؟ ، وعلى آثامها هـل اتقيناها ؟. ولكننا مطالبون كذلك بتقديم الحساب عن أنفسنا : عن قوانا ومواهبنا ، وعن أسباب نعيمنا ، وعن أوقاتنا وأعمارنا جملة ؛ هـل أهملناها وضيعناها ؟. أم أفدنا منها واستثمرناها ، فلم نركن بها إلى الفراغ والعطلة ، إلا في فترات نستجم فيها ، تأهباً لاستئناف العمل ؟. ثم في أي ضرب من ضروب العمل أو الاستجمام ، أنفقنا هذا العمر ، ساعة ساعة ، ولحظة

لحظة ؟ .. لقد كنت على حق أيها المربي الفاضل ، حين قلت أن الإجابة عن هذه المسائل ، هي أشق الإجابتين وأدقهما .. لعمري إن الحساب على الفرائض والمحارم لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى هذا الحساب ، فإني إذا سُئلت : هل صليت ؟ .. هل زكيت ؟.. هل قتلت ؟ .. هل سرقت ؟. كان الجواب عليّ هيناً ميسوراً : نعم . أو لا . لكن من الذي يحصي عمل حياته ، ويذكر ما مضى من حركاته وسكناته ليؤدي عنها الجواب سرداً وعدًّا على وجه الصواب ؟ .

قال المربي : يا بني ، ليس أكبر الحرج والعسر من هذه الناحية ، فإن الذي ننساه نحن يذكرنا الله به ، والسجلات حاضرة ، والشهود قائمة : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا . أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ . وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »(1) . « وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ »(2). وإنما الحرج الأعظم ، والألم الأشد والأمض ، في تذكيرنا ـ بعد فوات الوقت ـ بهذه الطاقات العظيمة ، التي زودت بها فطرتنا ، وهذه الثروة الضخمة من وسائل العمل ، التي

---

(1) سورة المجادلة : ٦ . (2) سورة الزمر : ٦٩ .

كانت في أيدينا ، وفي سؤالنا عن الموقف الذي اتخذناه بإزائها ؛ هل استعنا بها على طاعة الله ؟. أم تقوينا بها على معصية الله ؟. أم أبليناها وبدّدناها إسرافاً وعبثاً في غير طائل ، وفي غير نفع عاجل ولا آجل ؟. إننا حتى لو لم نطالب بالجواب ، لكان مجرد تذكيرنا بهذه النعم التي لم تُشكر ، وهذه الفرص التي لم تستثمر ، كافياً في أن يملأ صدورنا حرقة وغصة ، وفي أن يذيب قلوبنا ندماً وحسرة . ومن هنا صح في الأثر : أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ نَدِمَ . إِنْ كَانَ مُسِيئاً نَدِمَ أَلاَّ يَكُونَ أَقْلَعَ ، وَإِنْ كَانَ مُحْسِناً نَدِمَ أَلاَّ يَكُونَ ازْدَادَ .

قال الطالب : لعلك قد بلغت بنا الآن غاية المدى ، في تحديد الأُفق الذي تمتد فيه مسؤوليتنا .

قال المربّي : لا تعجل يا بني ، إننا بعد لم نذرع هذا الأفق إلا من أحد طرفيه . وبقي أمامنا طرفه الآخر . لقد ذرعناه من جهة وسائل العمل وظروفه ومعداته ، وبقي علينا أن نذرعه من جهة أهداف العمل ومقاصده وغاياته .. فمثل الإنسان وما جهِّز به من وسائل العمل ، مثل الرجل

يحمل قوسه ووتره وجعبة سهامه تأهباً للرمي . ومثل ما يؤديه من العمل مثل السهم يرمي به عن قوسه . ومثل ما يتطلع إليه من خلال ذلك العمل ، مثل القرطاس الذي يصوِّب الرّامي سهمه إليه: « كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً »[1]

هب نفسك إذاً لم تضيع أوقاتك سدى ، بل بذلت جهدك وأديت عملك. أتحسب أنك بهذا قد تمت مهمتك ، وطويت صحيفة مناقشتك ؟. كلا . لقد بقي أن تسأل : ماذا قصدت من هذا العمل ؟. ما الذي بعثك عليه ؟. ما الذي حفـزك إليه ؟.. هكذا أنبأنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه : (لَا تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ . . .) جعل أُولى هذه المسائل الخمس ، سؤال كل امرىءٍ : (عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ) . أي : عن وقته فيم ضيعه ؟. ثم جعل المسألة الثانية سؤال كل امرىءٍ : (عَنْ عَمَلِهِ فِيمَ عُمِلَ) . أي : في سبيل ماذا عمل ؟. إلى أي غاية قصد من هذا العمل ؟.. ذلك أن العاقل لا يعمل عملاً شعورياً جدّياً إلا لمعنى يطلبه فيه ، ويقصده منه . .

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦ .

قال الطالب : أليس المرءُ قد يعمل لغير غاية ؟. يعمل لمجرد العمل ؟.

قال المربي : لا يكون ذلك أبداً في عمل جدّي ؛ العمل لمجرد العمل ، الحركة لمجرد الحركة .. هذا هو العبث بحده وكنهه .

قال الطالب : أليس الذي يفعل الخير للخير يعمل لمجرد العمل ؟.

قال المربّي : كلا . ولكن لما يجده في طبيعة العمل من صفات فاضلة ، وغايات نبيلة ، تطمئن بها نفسه ويستريح لها ضميره . فهو قاصد من عمله إلى غاية معينة . وإن نوع الغاية التي يقصد إليها كل امرىءٍ من عمله ، هو العنصر الأخير الذي يحدد قيمة العمل ، فيجعله إما عملاً مبروراً ، وإما عملاً مأزوراً ، وإما عملاً عادياً لا برًّا ولا فاجراً .

قال الطالب : هل لك في أن تضع لنا معياراً ، نميز به هذه الأنواع الثلاثة من البواعث والمقاصد ؟.

قال المربي : اعلم يا بني أن الحديث في هذا ذو شجون وأن للتفصيل فيه مجالاً غير هذا المجال . وحسبك الآن أن

تنظر إلى مثالين اثنين ، ترى منهما كيف أن العمل الواحد ترتفع قيمته أو تنخفض ، تبعاً للنوازع والدوافع المختلفة التي تنطوي عليها نفس العامل .

إليك المثال الأول :

هؤلاء ثلاثة نفر ، كلهم يقوم أمامنا بواجبات البرّ والتقوى والعدل والإحسان .. فأما أحدهم ؛ فإنه يفعل ذلك امتثالاً لأمر ربه ، وسعياً في تزكية نفسه ، واستصلاحاً لشأن أمته ، لا خوفاً من سلطان ، ولا حذراً من عقوبة أو من حرمان ، ولا اجتلاباً لثناء أو لجزاء ، ولكن نزيهاً مجرداً عن كل غرض ، مبرأ القصد عن كل عَرَض . فتلك نيّة خيّرة مبرورة ، وصاحبها بأعلى منزلة ، فهو : « الْأَتْقَىٰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ »(١) . وأما الآخر فإنه يؤدي عمله ختلاً وخداعاً ، أو رياءً للناس : اتقاءً لسخطهم ، أو التماساً لثنائهم ، أو طمعاً فيما بأيديهم أو طلباً للمنزلة والحظوة عندهم .. فهذه نيّة آثمة شريرة

---

(١) سورة الليل : ١٧ — ٢١ .

وصاحبها بأحط منزلة: « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ »[1] . « وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ »[2]. وأما الثالث: فإنه يؤدي حق ربه خوفاً من ناره ، أو طمعاً في جنته ، كما يعمل عبد العصا خوفاً من العصا ، أو كما يعمل عبد الدرهم طمعاً في الدرهم .. فهذه نية بين بين ، لا نجد في القرآن تنويهاً بشأنها ، ولا تشويهاً لأمرها ، ولا مدحاً ولا قدحاً . فقصارى حظ صاحبها فيما نرى أن يخرج بها كفافاً لا له ولا عليه .

وإليك مثالاً ثانياً :

هؤلاء ثلاثة نفر يزاولون لوناً أو ألواناً من الرياضة البدنية : سباقاً أو سباحة أو رماية أو مصارعة أو غير ذلك . فأما أحدهم ؛ فإنه يبتغي من تقوية بنيته أن تكون له عدة على الصبر والجلد ، والطموح وعلو الهمة ، في مكابدته لأعباء الحياة ، وقيامه بواجباتها المقدسة . وأما الآخر ؛ فإنما يحفزه الإعجاب بنفسه ، والمفاخرة لأقرانه ، والاقتدار

---

(١) سورة الماعون : ٤ ــ ٦ . (٢) سورة النساء : ٣٨ .

على مغامراته ، والاشباع لملذاته ، والانطلاق غير المحدود لغرائزه . وأما الثالث : فكل ما يعنيه أن يتذوق طعم الحياة الهنيئة البريئة ، وأن يستمتع بالحلال الطيب في يسر ورغد .

هم درجات عند الله : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ) .

مسئوليات ادبية بعيدة المدى

بسم الله الرحمن الرحيم

كل راع مسئول عن رعيته

قل اللهم مالك الملك . نحمـــدك على آلائك ، ونصلي ونسلم على سيد أنبيائك ، وعلى آله وأصحابه الكرام .

وبعد :

قال التلميذ لأستاذه : لقد علمتنا أيها المربّي الحكيم أننا لكي نعرف حدود مسؤولياتنا المباشرة ، ينبغي أن نقيس امتدادها في أبعادها الثلاثه ، من جهة عمقها ، ومن جهة اتساع أُفقها ، ومن جهة ارتفاعها . أما بُعد عمقها ، فقد علمتنا أن مسؤوليتنا تتجاوز منطقة أعمالنا السطحية الظاهرة وأنها تتغلغل في أعماق نفوسنا ، حتى تتناول عقائدنـــا وحركات فكرنا وإرادتنا .. وأما اتساع أُفقها ؛ فقد عرفتنا أنها تجاوز مناطق الأعمال كلها ظاهرة وباطنة ، وأنها تمتد من جهة ، إلى وسائل الأعمال وأدواتها ، ومن جهة أُخرى إلى أهداف الأعمال وغاياتها .. هكذا عرفنا امتداد مسؤوليتنا في بعديها : عمقياً ، وأُفقياً . وبقي علينا أن نقيس بعدها

الثالث ، لنعرف امتدادها رأسياً . ماذا تعني إذاً بامتداد مسؤوليتنا من جهة ارتفاعها ؟ .

قال المربّي : يا بني ، لو كان كل إنسان خلق فـرداً لا يعمل إلا لحساب نفسه ، وليس مسؤولاً إلا عن شخصه . لو كان كذلك ، لكانت مهمة كل امرىء تنتهي متى أدّى حسابه عن قواه ومواهبه ، وعن عمل قلبه وجوارحه ، وعن بواعثه ومطامحه .. تلك كلها مسؤوليات شخصية تلازم كل فرد ، حتى لو فرض منقطعاً عن العالم ، لا ارتباط له إلا بعمله ، ولا صلة له بأحد من البشر .. غير أن الإنسان يفطرته خلق ليكون عضواً في جماعة صغيرة أو كبيرة ؛ في أسرة .. في عشيرة .. في منصب رفيع أو متواضع ، أو في أولئك جميعاً ، وهو – في ارتباطه بهذه الجماعة – مطالب أن يقوم بنصيب ما في صيانة كيانها ، وفي إصلاح شؤونها . ألم تسمع قول الله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً »[1] . لقد بينت لنا الحكمة النبوية أن كلمة « الأهلين » لا تخص أقاربنا الأدنين ، ولكنها

(١) سورة التحريم : ٦ .

تتناول بمعناها كل من تحت رعايتنا ، وكل من وكل أمره إلينا . . فلكل واحد منا ـ بهذه الصفة الجديدة ـ مسؤولية جديدة ؛ ليست مسؤوليته عن نفسه ، ولكن مسؤوليته عما تحت يده ، وعمن تحت يده . مسؤولية الحارس والراعي عمن في حراسته ورعايته ، مسؤولية الأمير والوالي ، عمن تحت إمرته وولايته .

قال الطالب : أتسمي كل من وكل إليه شأن من شؤون الغير ، راعياً لذلك الغير ووالياً عليه ، حتى الخادم والأجير ؟ !. أنكون نحن رعية لخدمنا وأجرائنا ؟ ! . أليس العكس هو الصحيح ؟ ! .

قال المربّي : يا بني . إنها رعـاية متبادلة ، وولاية مشتركة متقابلة . إنهم تحت رعايتنا فيما نملك ، ونحن تحت رعايتهم فيما يملكون . . . هم تحت رعايتنا نغذوهم ونكسوهم ، ونؤويهم ونربّيهم ، ونسبغ عليهم جناح عطفنا ورحمتنا . . . ونحن تحت رعايتهم ، يعاونوننا بسواعدهم ويسعون لنا بأقدامهم ، ويحرسوننا بأسماعهم وأبصارهم ويحيطوننا بوفائهم وإخلاصهم . ومن هنا جاء في الحديث

الصحيح ، أن الخـادم راع ومسؤول عن رعيته. وجاء في الحديث الصحيح ، أنهم إخواننا وخولنـا : يتخولوننا ويتعهدوننا ... وهكذا كان اسم « الولاية » في اللغة العربية اسماً مشتركاً بين الطرفين ؛ الخادم مولى لسيده ، والسيد مولى لخادمه ... كلاهما مسؤول عن حقوق هذه الولاية . كما أن كل من أمّر على شأن من الشؤون ، كان مسؤولاً عن إمرته ، على تفاوت كبير في درجات هذه المسؤولية .

قال الطالب : بأي مقياس نقيس هذا التفاوت ، في درجات تلك المسؤولية الاجتماعية ؟

قال المربّي : هنالك مقاييس كثيرة ، أقربها لتصورك مقياس الكم ؛ مقياس المساحة والعدد . ذلك أنه كلما اتسع مجال النشاط المطلوب منك بذله ، كلما كثر عدد الأفراد المنوط بك رعايتهم . وكلما ارتفع المكان الذي تشرف منه عليهم ، عظمت مسؤولياتك ، وتضاعفت تبعاتك . دوائر بعضها فوق بعض ، تتدرج في الاتساع على قدر تدرجها في الارتفاع ، كأنها هرم مقلوب ، قمتـه المدببة في أسفله وقاعدته العظمى في أعلاه ... من رب الأسرة إلى عميد

القرية ، إلى والي المدينة ، إلى أمير الإقليم ، إلى رئيس الدولة . . . إذا فهمت هذا يا بني ، فاعلم أنك لو عرفت لنفسك قدرها ، لم تصعد على هذا السلم إلا بقدر ، وبكل تحفظ وحذر . . . تبدأ بنفسك فتحكم أمرها ، ثم بأُسرتك فتصلح شأْنها ، ثم بما يوكل إليك من الأَعمال الجزئية ؛ فتسعى في تجويدها وإتقانها . . . ولا تمدنّ عينيك إلى ما وراء ذلك ، فتحمّل نفسك ما لا طاقة لك به . فإن عرض لك شيء من هذه المسؤوليات العظمى ، واستطعت أَن تتنصل منه فافعل ، فإن ذلك أَعون لك على الإحسان والإجادة فيما حملت من الأَمانات الأُخرى . أَمّا إن لم تجد لك محيصاً عن حمل هذه الأَعباءِ الكبرى ، فحملتها وأَنت غير مستشرف لها ، ولا ساعٍ إليها ، فلتتق الله فيها حق تقاته ، ولتتخذ لك فيها أُسوة حسنة من سيرة الخلفاءِ الراشدين ، والأُمراء الصالحين . . روى عبد الرحمن بن الجوزي ، عن فاطمة بنت عبد الملك ، زوجة عمر بن عبد العزيز ، قالت : أَرق عمر ذات ليلة ، فجلس واضعاً رأْسه على يده ، ودموعه تسيل على خدّه ، حتى برق الصبح . . . قالت : فدنوت منه فسأَلته ماذا يؤرقه ؟ . وماذا يبكيه ؟ . فقال : دعيني لشأْني

وعليك بشأنك . قالت : فألححت عليه حتّى قال لي : إني نظرت فوجدتني قد وُلِّيت أمر هذه الأمّة ، صغيرها وكبيرها ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم في أقاصي البـلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجيجي فيهم ، فخفت ألا يثبت لي عند الله عذر وألا تقوم لي أمام رسول الله حجة ، فخفت على نفسي خوفاً وجِل له قلبي ، ودمعت له عيني ، وإني كلما ازددت لذلك ذكراً ، ازددت منه خوفاً ووجلاً . قال الفضيل بن عياض : بكى عمر بن عبد العزيز يوماً ، فقيل له : ما يبكيك ؟! . فقال : ومالي لا أبكي ، ولو أن سخلة هلكت على شاطيء الفرات ، لأُخذ بها عمر يوم القيامة .

قال الطالب : ألا ترى هذا غلوًّا في الدين ، وإسرافاً في الورع ؟ . فهذا الرجل الذي حمل أعباءَ الدولة ، واستأثرت به عظائم شؤونها ، كيف يُسأل عن فروعها ووقائعها ، بعد أن خلع ربقتها من عنقه ، وألقاها على كاهل غيره ، حيث استعمل على كل شأن منها عاملاً ، وولّى على كل طرف منها

والياً ، وأصبح هؤلاءِ هم المسؤولون عنها ، فإنما عليه ما حمّل وعليهم ما حمّلوا . .

قال المربّي : ما أَراك يا بني إلا قد طال عليك الأَمد فنسيت . . نسيت مبدأَ المسؤوليات المزدوجة ؛ إن كل أَمانة ـ دقَّت أَو جلَّت ـ ضيعها عامل ـ صغر أَو كبر ـ فإنها لاتقع تبعتها على العامل الذي ضيعها وحده ، ولكن يُسأَل عنها رئيسه المباشر ، الذي أَساءَ الاختيار ، حين أَسندها إلى من ضيعها ، ثم يُسأَل عنها من ولَّى هذا الرئيس المباشر ، ثم مَن ولَّى الذي ولاه ، وهكذا تصعد المسؤولية درجة درجة إلى كل مَن ولَّى أَو أَمّر ، أَو استخلف أَو استوزر ، فلا يبرأُ أَحد منهم أَمام الله إلا بأَحد أَمرين : إما بإصلاح ما فسد ، وإما بعزل المضيّعين المفرّطين ، وتولية الصالحين المصلحين « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »[1] .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأَصحابه إلى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة التغابن : ١١ .



فهرس



الموضوع	الصفحة

من صفات المؤمنين

مسئوليات أدبية بعيدة المدى

مطابع قطر الوطنية

الدوحه – قطر

ص.ب ٣٥٥







المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ